صلاح الدين
وتحرير القدس
إعداد
عبلة المهتدي

صلاح الدين
وتحرير القدس

حقوق التأليف والنشر محفوظة. ولا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه على أية هيئة أو بأية وسيلة إلا بعد مراجعة المؤلف والناشر.

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٤٨٧/ ٧)

رقـــم التصنيـــف : ٩٥٦,٠٦٦٩

المؤلف ومن هو في حكمه : عبلة سعيد المهتدي

عنـــوان الكتـــاب : صلاح الدين وتحرير القدس

الموضـــوع الرئيـــسي : ١- فلسطين - تاريخ

٢- القدس - تاريخ

بيانـــات النـــشر : عمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

عمان - الرمز البريدي: ١١١١٨ - الأردن

ص.ب: ١٨٤٢٥٧ - تلفاكس: ٤٦١١٦٠٦

صلاح الدين وتحرير القدس

إعداد

عبلة المهتدي



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

الإهـــداء

إلى بناتي الغـاليـات زينة ، دينا ، ولينا وإلى جميع أبناء وبنات جـيلهم الناشيء الجديد الذين شاء لهم القدر أن تتفتح براعمهم على واقع عربي صعب ومرير، أشبه ما يكون بالواقع الذي كـان سـائداً في بلادنا العـربيـة منذ تسـعة قرون خلت، وأدت بهم الحال الى وقوع أرضنا الطهور بأيدي الصليبيين.

كلي أمل ورجاء أن يكون كتابي هذا نبراساً لهم في التثبت باوطانهم والإيمان بعـروبتهم والاخلاص والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل رفعة الوطن ، لتبقى بلادنا حـرَّة أبية .

إن شـــاء الله

عـبـلـة

شكـر وتقدير ...

إلى ابـن الـقـدس البـار الدكـتـور الفـاضل «كـامل جميل العسلي» أتقدم بوافر شكري وجزيل امتناني ، لما منحني إياه ، من وقـتـه وجـهده وعنايته الكثير ، لإعداد هذا الكتاب ، حتى تظل القدس في الأعماق ويحصد الخَلَفُ ما زرعه السّلف .

وشـكـراً

عبلة المهتدي

المحتويات

تقديم :

في هذه الأيام التي تجتاز فيها القدس محنتها الكبرى ، محنة التهويد وطمس المعالم وتبديد الحقوق، ينبغي أن تظل القدس نصب الأعين وموضع الحديث لتبقى المدينة الرمز حية في الفكر والوجدان.

كثرت في الآونة الأخيرة الدراسات العربية عن القدس، ولكن هذه الدراسات مهما كثرت فهي قليلة نسبياً وأقل مما تستحق زهرة المدائن.

فمن الحقائق المعروفة أن القدس ، على عظم مكانتها عند العرب والمسلمين ، ظلت خارج ميدان التأليف العربي عدة مئات من السنين الأخيرة. وفي القرن التاسع عشر لم يكتب العرب والمسلمون عنها كتاباً واحداً بينما ظهرت في هذا القرن التاسع عشر نفسه بضعة آلاف من الكتب التي وضعها الغربيون عن المدينة، وأكثر هذه التآليف الأجنبية مما لا تطمئن اليه النفس، فهي تنطلق في معظمها من موقع العداء للعرب والمسلمين، وتتضمن كثيراً من التشويهات للحقائق المتصلة بالمدينة المقدسة، وما زال سيل هذه الكتب الأجنبية، وفي مقدمتها الكتابات الصهيونية، يتدفق، بحيث يمكننا أن نقول أن ضراوة المعركة الثقافية حول القدس لا تقل بصورة من الصور عن ضراوة المعركة السياسية. ولاشك أن المؤلفات الصهيونية الكثيرة التي تنشر وتنتشر في مختلف أنحاء العالم تصيبنا بضرر كبير . ومن هنا غدت دراسة العرب للقدس والتأليف عنها أمراً واجباً وضرورة ملحة، لا لرد عادية التشويهات المتعمدة فحسب، بل لزيادة معرفة أهل البلاد أنفسهم بموقع القدس في تاريخهم ودينهم وبتراث القدس وذخائرها، وبذلك يزداد حبهم لهذه المدينة العظيمة وتمسكهم بها الى الأبد.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن (صلاح الدين وتحرير القدس) هو حلقة من سلسلة الجهود الجديدة التي تزيدنا معرفة بمدينة القدس في فترة هامة من تاريخها تربو عن المائتي سنة، فترة كان واسطة عقدها تحرير صلاح الدين الأيوبي للقدس بعد احتلال فرنجي دام ثمانياً وثمانين سنة.

لقد كان تحـرير القـدس سنـة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ملحمـة بطوليـة ستبقى خالـدة على مدى الزمان ، وجديرة بان نردد ذكرياتها الناجعة ، خصوصـاً في هذه الأيام التي ترسف فيها القدس بقيود عداة جدد، لا لمجرد التغني بالماضي والمباهاة به، بل لتغذية عزائمنا والهامنا فيما نحن بسبيله من العمل الدؤوب المتفاني في سبيل عودة القدس الى العرب والإسلام.

ومما يبعث الغبطة في النفس أن نرى سيدة من أهل القدس هي السيدة عـبلة المهتدي، تنهض للعمل في ميدان التاريخ لبلدها، خصوصاً إذا تذكرنا أن عدد المؤلـفات العربيات اللاتي دخلن ميدان التاريخ للقدس والبحث في تراثها العـربي الإسـلامي ، قليل للغـاية . ولعل السيدة عبلة تستنهض بهذا الكتاب همم أخواتها من سائر البلدان العربية، لخوض هذا الميدان من ميادين الكتابة التاريخية .

وقـد كنت أشـعـر بارتيـاح وأنا أقـرأ مخطوطة (صلاح الدين وتحرير القـدس) فـقـد جمعت المؤلفـة فـيـها كثيراً من الحقائق حول الغزو الفرنجي للقدس ومقاومة أهل البلاد له في زمن أبطال الزنكيين، ثم في عهد صلاح الدين ونوهت بمآثر هذا القـائد الكبير وجهوده وآثاره في بيت المقدس . وقد عرضت المؤلفـة هذه الحقائق كلها بيسر وسلاسة تدفع القارىء الى الاستمرار في متعة القراءة دون كبير جهد وعناء .

والحـقائق الواردة في الكتاب جديرة بان تذكرها ونتذكرها في هذه الأيام بشكل خـاص. فالجيل القديم سيستذكر من هذا الكتاب الكثير مما نسيه منها، والجـيل الجـديد من الشـبـاب سـيجد أشياء كثيرة جديدة عليه، وستساعده مـعـرفـة الماضي على الانطلاق على أسـاس من العلم والمعـرفـة بخطى ثابتـة سديدة في العمل من أجل المستقبل.

وأنا واثق من أن الكتـاب الذي بين أيدينا سـيـسـهم اسـهـامه الجيد في زيادة التـعـريف بالقـدس، وفي حفز الأجيال القادمة على العمل بعزم من أجل استرداد هذه الدرة الغـاليـة (زهرة المدائن) ، وبذلك تكون المؤلفـة الكريمة قد حققت الهدف الذي توخته من الكتاب.

والله الموفق....

د. كامل العسلي

تمهيد :

مدينة القدس مدينة عربية إسلامية تمتد جذورها الى عهد الكنعانيين العرب ومنهم اليبوسيون، وهم بناة المدينة الأوائل ومنشؤها في فلسطين حوالي العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وهم أول من أطلق عليها أسم «يبوس».

لقد حباها الله من القدسية والبركات ما لم يهبه لغيرها من المدن في العالم أجمع لقوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ صدق الله العظيم . فالمدينة مباركة وكل ما حولها مبارك ، فهي مسرى الرسول محمد (ﷺ) وأولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين .

ونظراً لقدسيتها ومكانتها العظيمة لدى أتباع ديانات التوحيد الثلاث الإسلام، والمسيحية، واليهودية، وتبعاً لموقعها الجغرافي المتوسط بين القارات الثلاث آسيا واوروبا وافريقيا، فقد كانت مطمح انظار الطامعين والمستعمرين لاغتصابها وانتزاعها من أيدي اصحابها الشرعيين ، فشهدت من الصراعات والنزاعات والمحتلين عبر التاريخ ما لم تشهده مدينة غيرها.

احتلها المصريون الفراعنة ثم العبرانيون ثم الفرس واليونان والرومان حتى تم تحريرها الأول على يد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب الذي تمكن من استعادتها بالسلم لا بالحرب، واعادها الى الدولة العربية الإسلامية، ومن بعده واصل الخلفاء والحكام العرب والمسلمون الاهتمام بها ورعايتها حتى كانت الحملات الصليبية على بلاد الشرق العربي، وبخاصة على مدينة القدس في وقت كانت فيه الأمة العربية اكثر تفرقاً وتمزقاً وتناحراً فيما بينها من أي وقت مضى ، فتمكن المحتلون الصليبيون من احتلالها وتدنيسها لمدة ٨٨ عاماً .

إلا أن سقوط مدينة القدس لا يمكن أن يعزى الى قوة الحافز الديني وراء هجمتهم الشرسة أو ارتفاع المستوى الحضاري للغزاة الاوروبيين، لأن عصر النهضة الاوروبية لم يكن قد بدأ بعد في ذلك الوقت. غير أن السبب الأول والأهم وربما الوحيد في غلبة الصليبيين على المسلمين في تلك الحروب الطاحنة هو قيام أهل الغرب بشن حروبهم على بلاد الشرق بتعبئة شاملة وبتعاون كامل لم يمارسوه قط في بلادهم، في وقت كانت فيه الأمة العربية الإسلامية أكثر تفرقاً وتناحراً فيما بينها من أي وقت مضى، فدافع المسلمون وحاربوا في جو من التمزق والتشتت ضمن إطار دويلات وإمارات متنافرة ومتفرقة داخل الدولة (١) الواحدة ، وتحت قيادات كانت تفصلها عن قواتها وشعوبها فجوة سحيقة من الظلم والاستغلال والتناحر على المناصب والرغبة في الحكم ولو بمساعدة أعداء الوطن والدين وفي غير صالح الأوطان وأهلها. فادى كل ذلك الى ضعف المسلمين وبالتالي هزيمتهم.

من إنتصار صلاح الدين وتحريره لمدينة القدس بعد ثمانية وثمانين عاماً من الاحتلال البغيض نعرف أن توحد الأمة العربية الإسلامية في بلاد الشام ومصر والجزيرة كان السبب الأول والأكبر في قوة الأمة وتضامنها والذي أدى إلى صمودها وانتصارها.

وتوحد كلمة العرب وجمع شمل أمتها لم ياتي صدفة ، وإنما كان نتيجة لعمل شاق وجهد طويل بدأ منذ بدايات عهد الأتابك عماد الدين زنكي الذي آمن بضرورة توحد الأمة الإسلامية لتقف صفاً واحداً في وجه أعداءها، فسعى سعياً حثيثاً نحو توحيد إمارات بلاد الشام تحت قيادته الموحدة والحكيمة، ووجه قوى تلك المناطق نحو هدف واحد سام وهو الوقوف والتصدي في وجه الصليبيين. وكذلك من بعده سار ابنه نور الدين على ذات

---

(١) كان العالم الإسلامي في ذلك الوقت منقسماً الى دولتين أو خلافتين ، كما كان يطلق عليهما في ذلك الحين. وهما العباسية السنية في بغداد والفاطمية الشيعية في القاهرة.

النهج في توحيد بلاد الشام مع مصر ، الى أن تولى القائد صلاح الدين قيادة الأمة الإسلامية ، واستطاع إتمام ما بدأه قادته من قبله في توحيد الأمة حتى تهيأت له أسباب النصر، فبادر بالتخطيط والعمل لمواجهة المحتلين للأرض الإسلامية والقضاء عليهم . فدخل حرب التحرير والمواجهة مع أعدائه الصليبيين ، وتمكن من تحقيق أعظم الانتصارات عليهم، التي توجت بمعركة حطين الخالدة التي فتحت له الطريق لدخول بيت المقدس الشريف، وتطهيرها من المحتلين الغاصبين .

ولذلك فإن أمتنا العربية الإسلامية باقية صامدة وشامخة في وجه أعدائها ، مهما بلغت مراحل يأسها ، ومهما كانت شراسة أعدائها ما دام هناك دم عربي حر يجري في عروق أبنائها .

عبلة

الفصل الأول

الحملة الصليبية الأولى على بلاد العرب

(١)

حالة الوطن العربي في القرن الحادي عشر الميلادي

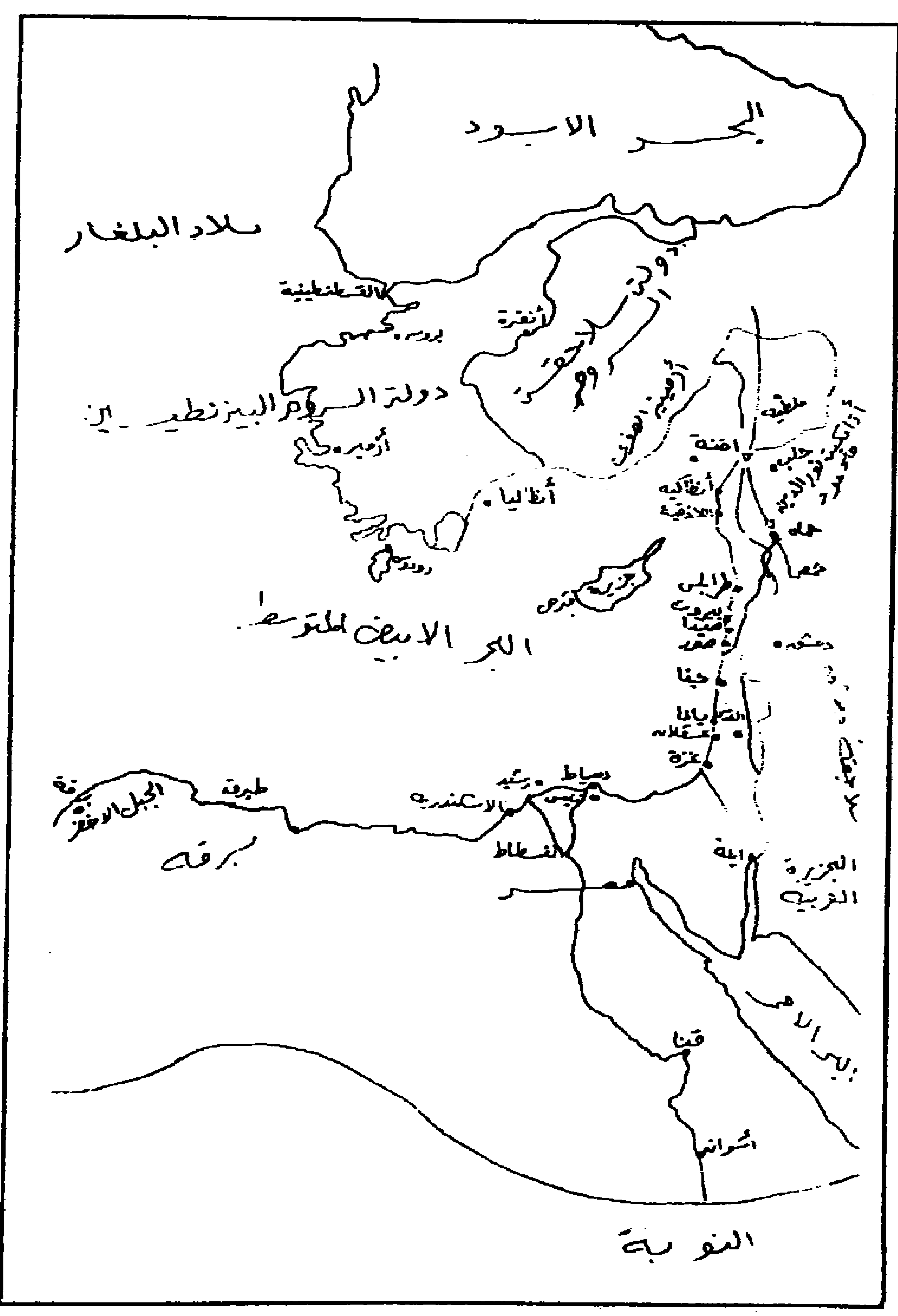
في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي ، كانت تسود بلاد المشرق العربي حالة من الفوضى والتمزق والتفكك نتيجة لسوء العلاقات وكثرة الخلافات والمنازعات المذهبية والسياسية بين الخلافة العباسية السنية في بغداد، وبين الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. كما كانت أجزاء كبيرة من الحدود الشمالية لبلاد الشام وشمالها الغربي تحت الحكم البيزنطي في آسيا الصغرى ، أما الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام مع سواحلها فقد كانت خاضعة لحكم الفاطميين في مصر.

هذا ومن ناحية أخرى كانت بعض بلاد المشرق العربي الإسلامي تحكم من قبل حكام غرباء عن أهل البلاد الأصليين وهم السلاجقة (١) الأتراك . أسلموا وحسن إسلامهم ودافعوا عن الإسلام ، فوثق بهم الخلفاء العباسيون ، فأولوهم حكم الولايات حتى أصبحوا أسياد دويلات مستقلة، فراحوا يحكمون صورياً بإسم الخليفة العباسي وفعلياً بإسمهم الخاص، وما كانت هذه الحالة الا نتيجة مؤسفة من نتائج السياسة الفاشلة التي سلكها الخلفاء العباسيون بعد قضائهم على الأمويين وانصرافهم الى حياة اللهو والترف.

ونتيجة لضعف الادارة المركزية في الخلافة العباسية ، قامت هناك حركات انفصالية متعددة عن جسم الدولة ، أدت الى نشوء دويلات ضعيفة وهزيلة أطلق

---

(١) السلاجقة : أصلهم فئة من الاتراك خرجوا في أواخر القرن العاشر الميلادي من سهول تركستان، وحملوا السلاح للغزو، ودخلوا الحروب للمغانم، وكان على رأسهم ابناء زعيم من زعمائهم اسمه «سلجوق» واعتنق هؤلاء الاتراك دين الإسلام وتحمسوا للدين، فانتقلوا من فئة الى قبيلة، ومن قبيلة الى أمة، وقد بدأ حكمهم الفعلي لبلاد العرب، بدخول عظيمهم «طغرل بك» مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م ، وكان في بغداد يومئذ الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» فأبقاه ليحكم صورياً ، لكنه قضى على من سواه في الحكم من المتنفذين والقادة.



(١) التقسيمات السياسية في القرن السادس الهجري

مقياس الرسم ١ : ١٠,٠٠٠,٠٠٠

عليها اسم الأتابكيات ، وعلى أصحابهم اسم الأتابكة (١) ، وكانت بعض هذه الدويلات أو الأتابكيات صغيرة جداً لا تتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة . كما أنها كانت لا تملك من أسباب القوة غير الدفاع عن نفسها تجاه أبناء البلاد الأصليين . كما أن سادة هذه الدويلات لم تكن لديهم فكرة واضحة عن مفهوم الدولة وكيفية الحفاظ عليها وعلى استمرار وجودها ، فكان كل واحد منهم يعتبر الدولة ملكاً من أملاكه الخاصة، يقسمه بين الورثة في حياته أو يتقاسمها الورثة بعد وفاته ، وكثيراً ما كانت تنشب الحروب بين الأخوة والأقارب من أبناء الأسرة الواحدة للفوز بالحكم والغنائم .

ومن أهم تلك الدويلات أو الأتابكيات، أتابكية دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين والتي استمرت من عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م ـ ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م (٢) ، وأتابكية الموصل بزعامة عماد الدين زنكي ، وقد امتد نفوذها من شمال العراق الى شمال الشام، وقد استمرت من سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م ـ ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م (٣) .

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ازداد الصراع والتنافس بين السلجوقيين والفاطميين على أراضي بلاد الشام ، نظراً لأهميتها السياسية والدينية والاقتصادية لكل منهما، فقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تريد الحفاظ على الشام كجزء من ممتلكاتها، في حين كان الفاطميون في مصر يرون في الشام امتداداً طبيعياً لمصر ، وقاعدة عسكرية يستطيعون بها تأمين حدودهم الشرقية ضد الروم والعباسيين، وليجعلوا منها قاعدة لدعوتهم الشيعية (٤) .

لكن قوة الفاطميين أخذت بالضعف والانحسار ، مما أدى الى تقلص نفوذهم في بلاد الشام ، الى أن خرجت من أيديهم عندما تمكن القائد السلجوقي «أتز» التركماني من فتحها حتى دمشق في ذي القعدة سنة ٤٨٦هـ/ حزيران عام ١٠٧٦م.

---

(١) الأتابك : لفظ تركي مكون من (اتا) أي الأب المربي ، و (بك) أي الأمير ، ومعنى ذلك أنه مربي الأمير أو الملك، وكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب تكريماً له. انظر د. عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٢) د. أمينة البيطار، تاريخ العصر الأيوبي ـ ص٩ .

(٣) د. أمينة البيطار، تاريخ العصر الأيوبي ـ ص٩ .

(٤) انظر جب ـ هاملتون، صلاح الدين، ص ٤٦ ـ ٤٨ .

فاستولى عليها أمراء السلاجقة وتم تقسيمها فيما بين أمرائهم .

الى جانب القوى العربية الإسلامية هذه، كانت هناك منطقة آسياالصغرى التي كان يحسب حسابها ، وكانت هذه المنطقة بكاملها قبل القرن الحادي عشر الميلادي من أملاك الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مناطق الحدود ساحة قتال دائمة بين العرب المسلمين والبيزنطيين، حتى كان عهد السلاجقة، وانتصار «ألب أرسلان» السلجوقي على الامبراطور البيزنطي «رومانوس ديوجنيس» في معركة ملاذكرت (١) الشهيرة سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م . فتبعها العديد من الانتصارات والفتوحات للمسلمين ، حتى تمت لهم السيطرة والسيادة على آسيا الصغرى ، من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً .

هذا وقد رأى كثير من المؤرخين، أن ما حدث سنة ١٠٩٥م من دعوة الغرب الأوروبي للحرب ضد المسلمين ، ما هو إلا رد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١م ، لأن تلك الموقعة وما تبعها من استمرار توسع السلاجقة المسلمين في فتوحاتهم، كانت دليلاً واضحاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين الشرقيين ، مما أوجب على الغرب الأوروبي أن يقوم بهذه الحماية ، بدلاً من اعتماده حتى ذلك الوقت على الامبراطورية البيزنطية.

إلا أن ما يؤسف له أن الصراع بين الأمراء السلاجقة أنفسهم على السلطة أدى إلى ضعفهم وتفككهم مما كان له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى.

---

(١) عن معركة ملاذكرت أو مناذكرد انظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج١٠ ، ص٦٥ ـ ٦٨ .

(٢)

ماهية الحركة الصليبية ؟

في غمرة الصراع بين القوى المتعددة الحاكمة للمشرق العربي، واهتمام كل واحدة منها بأوضاعها الخاصة دون النظر الى مصلحة البلاد الإسلامية عامة. تطلع الغرب الأوروبي الى بلاد المشرق العربي ليتهز الفرصة الملائمة ليوقع بالمسلمين، وليؤسس له ملكا على أنقاض بنيانهم، وليحقق مكاسب كثيرة ومغانم مختلفة. فنشبت الحروب المعروفة في التاريخ بإسم الحروب الصليبية، وهي الحروب التي شنتها أوروبا الغربية المسيحية على بلاد الشام خاصة ومصر أحيانا، وقد ارتدت هذه الحروب حلّة الدين، وحمل أفرادها شارة الصليب، وأدعوا أن غايتهم إنتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. (١)

وقد بدأت أحداث الحركة الصليبية بخطبة وجهها البابا أوربان الثاني من مجمع كليرمونت الفرنسي في السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٠٩٥م، وبحضور أمراء من مختلف جهات أوروبا، وعدد كبير من رجال الدين، ومندوبين عن الامبراطور البيزنطي وممثلين عن المدن الايطالية. ومن خلال خطبته تمكن البابا من إثارة حماس السامعين، ودعوة المسيحيين جميعاً للإتحاد لقتال المسلمين، لاستخلاص الأراضي المقدسة من أيديهم، فتردد في أرجاء المجمع هتاف ـ هكذا أراد الله ـ وأستقر الرأي على أن يحوك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على ردائه الخارجي من ناحية الكتف، رمزا للحركة التي اشترك فيها والفكرة التي خرج ليحارب من أجلها. (٢)

وما أن وجه البابا أوربان الثاني دعوته هذه، حتى رحبت القوى الاجتماعية المختلفة في الغرب الأوروبي بهذه الدعوة، لأنها كانت بمثابة الهدف العام، الذي يمكّن كل طبقة من طبقات المجتمع الأوروبي الغربي الذي كان يسوده النظام

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ١٤

(٢) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ١٣٤

الاقطاعي، أن تعبِّر عن نفسها من خلاله. فقد كانت المجتمعات الأوروبية تتألف من ثلاث طبقات:

١ـ رجال الدين
٢ ـ النبلاء والفرسان
٣ ـ وأخيراً طبقة الفلاحين ورقيق الأرض.

لقد كانت كل من الطبقتين الأولى والثانية تشكل الأقلية في المجتمع ، وهي الهيئة الحاكمة والمستغلة ، في حين كانت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية ، التي على افرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة أفراد الطبقتين ، كما أن أولئك الفلاحين ، عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات ، مما جعلهم يعيشون حياة شاقة وفي ضيق دائم.

وهكذا رحّب العامة من الناس في أوروبا بهذه الدعوة ، حيث وجدت فيها فرصتها ، للتخلص من الجوع والفقر اللذين خيّما على حياتهم التعسة ، بإيجاد سبل حياة أفضل، لظنهم أنهم سيمضون صوب الأرض التي لا يوجد بها فقراء. (١)

أما السبب في استجابة الفرسان الاقطاعيين لدعوة البابا ، فهو أن الكثيرين منهم كانوا يتحرقون شوقا للمغامرة خارج أوروبا، (٢) بعد أن باتت فرصة الغزو والتوسع داخلها ضئيلة، ومحفوفة بكثير من المخاطر ، بسبب ثبات حدود الدوقيات والكونتيات الاقطاعية . كما أن زيادة عدد السكان، أدت الى زيادة في عدد الفرسان الذين لا يملكون اقطاعات ، وأولئك هم الذين كانوا على استعداد للمشاركة في الحملة الصليبية أملا في الحصول على الأملاك والضياع في فلسطين «الأرض التي تفيض باللبن والعسل» كما يقول كتابهم المقدس. (٣)

هذا بالاضافة إلى أن بعضهم وجدها فرصة للهروب من العدالة ، أو الهروب من الدائنين، في حين انضم آخرون الى الحملة، خوفاً من أن يظن الناس انهم كسالى متقاعسون أو رغبة في صحبة أصدقائهم.

---

(١) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ١٣٧ .
(٢) د. سعيد عاشور ـ اوروبا في العصور الوسطى ـ ج١، ص ٤٢٩.
(٣) See: Setton & Baldwin, A History of the Crusades, Vol. 1, P 29 .

أما البابوية فقد رأت في الحملة الصليبية ، أداة من أدوات السياسة الداخلية والسياسة الخارجية على السواء ، اذ كانت تهدف الى فرض سيطرتها على المسيحيين الشرقيين ، إضافة الى خشية البابوية من النورمان ، الذين ازداد خطرهم على صقلية وجنوب ايطاليا ، فرأت في الحروب الصليبية فرصة لصرفهم عن ايطاليا ، وتوجيه نشاطهم نحو ميدان آخر بعيد. (١)

وهكذا يتضح لنا على أنه بالرغم من اتخاذ الغرب الأوروبي للدين ستاراً لهذه الحركة الحربية الاستعمارية ، إلا أن حقيقتها كانت أبعد ما تكون عن هذا الدين ، لأن الدوافع والأسباب الدنيوية على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي لدى كافة القوى الاجتماعية، هي التي جعلت من أمر الحملة الصليبية أمراً محتملا. لكننا إذا ما أضفنا كما ورد سابقا كيف أن التنافس والتناحر بين القوى العربية والإسلامية الحاكمة لبلاد المشرق العربي أدى الى ضعفهم وتفككهم ، فإن واقع الحال العربي الاسلامي هذا كان الحافز والسبب الرئيسي في جعل أمر الحملة الصليبية أمراً واقعا.

(١) د. عاشور ـ اوروبا في العصور الوسطى ـ ج١، ص ٤٢٩.

(٣)

السير نحو القدس

نتجت عن دعوة البابا أوربان الثاني استعدادات كبيرة على المستويين الشعبي والرسمي لاعداد الحملة الصليبية ضد الشرق، مما أدى الى تشكيل قسمين للحملة: ضم القسم الاول منها العامة من الناس وقد عرفت بالحملة الشعبية، في حين ضم القسم الثاني الأمراء .

أما الحملة الشعبية فقد ارتبطت باسم ناسك يدعى بطرس الى جانب زعيم آخر يدعى والتر (Walter) (١) ، وكان الناسك بطرس يتمتع بشخصية قادرة على التأثير في الجماهير الغفيرة على الرغم من أنه كان ضئيل البنية زرى الهيئة.

بدأ بطرس الناسك تحركه خلال الشهور الأولى من عام ١٠٩٦م في شمال فرنسا، مستغلا فصاحته للدعوة للحركة الصليبية . ثم عبر هضبة اللورين الى آخن وكولونيا التي وصلها قبل عيد الفصح من نفس العام ومعه عشرات الآلاف من الأتباع كان معظمهم من الفلاحين والمنبوذين والرعاع . وكان على هذه الجموع أن تتحرك باستمرار للحصول على الطعام ، حيث لم تكن هناك مدينة في العصور الوسطى بامكانها إطعام زائرين يصل عددهم إلى عشرات الآلاف .

بحلول الربيع رحلت المجموعة الأولى من الحركة الشعبية بقيادة والتر عبر المجر الى أراضي الدولة البيزنطية ، وفي الطريق نسيت تلك الجموع أنهم يخترقون بلاداً مسيحية ، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي الآمنين ، ومع ذلك في بادىء الأمر رحّب الحكام البيزنطيون في البلقان بتلك الجموع الصليبية رغم مظهرها الرث الذي يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مبادىء القتال.

أما بطرس الناسكُ فقد غادر كولونيا في ابريل من عام ١٠٩٦م على رأس جمع غفير من أتباع الحركة الشعبية، وفي طريقهم عبروا أراضي الدولة الألمانية حتى وصلوا الى الحدود المجرية، وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة «أسملين» المجرية وقع خلاف بينهم

---

(١) د. امينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ١٩.

وبين المجرين بسبب الحصول على المؤن ، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحة رهيبة في تلك البلدة أسفرت عن قتل ٤٠٠٠ من أهلها المسيحيين الأبرياء ، الى جانب سلب ونهب كل ما يصل الى أيديهم (١) . فتركت هذه الجريمة البشعة التي أتاها الصليبيون أثارا من الريبة والشك لدى البيزنطيين الذين أخذوا يتشككون في تلك الجموع التي أتت الى الشرق لتحارب باسم المسيح والمسيحية.

استمر أتباع الناسك شق طريقهم في سلب ونهب كل ما يصل الى أيديهم من المدن والقرى حتى وصلت قواتهم الى البسفور في أواخر حزيران من عام ١٠٩٧م، وحينما اصطدموا بالسلاجقة انهزموا هزيمة نكراء ، وانتهى أمرهم كحملة منفردة . (٢)

أما القسم الثاني من الحملة ، حملة الأمراء فقد أُعد اعداداً جيداً وتألف من مجموعات متعدده لكل منها طابعها المميز الذي لازمها منذ أول الأمر ، كما ميّز نشاطها في الشرق ، أي أن روح الاقطاعية بدت واضحة في القسم النظامي من الحملة الصليبية الأولى . إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة به ، مما جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات . (٣)

شكل الأمراء الصليبيون المتجهون الى الشرق ثلاث مجموعات كبيرة ترأس الأولى منها: غودفرى دى بويون وبرفقته أخوه بلدوين وهم من فرسان اللورين.
وترأس المجموعة الثانية: بوهيموند وابن أخته تانكرد وهم من النورمان
وترأس المجموعة الثالثة: ريموند دى تولوز وبصحبته الأسقف أدهمار ليكون مندوبا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين في الشرق (٤) .

والتقت هذه الجموع الثلاثة في القسطنطينية وكان عددهم يترواح بين ستين ألفا ومائة الف. (٥)

---

(١) انظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٨٣ ـ ١٨٤
(٢) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ١٣٥ ـ ١٤٠
(٣) د. امينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٢٠
(٤) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ١٥٦ ـ ١٥٧
(٥) رنسيمان ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ص ٢١٠ ـ ٢١٩

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى - بإستثناء ريموند وتانكرد - يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطى «الكسيوس كومنين» ، وتعهدوا له برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من نيقية حتى أنطاكية ، وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بمساعدتهم بكل قواه سواء في تقديم المؤن اللازمة لهم، أو بمدهم بفرق من الجيش البيزنطي في حال عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا. (١)

واصلت الحملة تقدمها عبر الأناضول ، فاحتلوا نيقية ، ثم هزموا السلاجقة في الموقعة الفاصلة عند « أسكي شهر » ، واستخلصوا بذلك منطقة غربي الأناضول كلها. (٢) ثم اجتازوا جبال طوروس وانقسموا الى قسمين ، ترأس أحدهما تانكرد وبلدوين واتجها باتجاه الشمال الشرقي، في حين اتخذ بقية الصليبيين وعلى رأسهم المندوب البابوي أدهيار وغودفرى وبوهيموند وريموند طريقهم الى بلاد الشام. (٣)

وصل البعض منهم برئاسة بلدوين الى القرى والضياع الأرمنية ، فرحّب بهم الأرمن (٤) وبمساعدتهم تمكن الصليبيون من احتلال مدينة الرها ، وأسسوا فيها أول إمارة صليبية في الشرق سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م (٥) .

في تلك الأثناء زحف باقي الصليبيين الى أنطاكية (٦)، واصطفت جموعهم أمام أسوارها ، وشددت عليها الحصار مدة تسعة أشهر ، ونتيجة للمقاومة الباسلة التي

---

(١) رنسيمان - تاريخ الحروب الصليبية - ص ٢١٩ - ٢٢٢.

(٢) د. سعيد عاشور - الحركه الصليبية - ج١، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) د. امينة البيطار - تاريخ العصر الأيوبي - ص ٢١.

(٤) هاجر الأرمن من بلادهم حول بحيرة فان الى كليكية هجرة كبيره في القرن الخامس الهجري، الموافق للحادي عشر الميلادي ، وذلك أمام غزوات السلاجقة ، انظر د. عاشور - الحركة الصليبية - ج١، ص ١٧٣.

(٥) رنسيمان - تاريخ الحروب الصليبية - ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٦) كانت مدينة انطاكية حين حاصرتها الجيوش الصليبية بيد السلاجقة منذ أن انتزعها سليمان بن قتلمش سلطان سلاجقة الروم من البيزنطيين سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٥م. ثم اصبحت من أملاك تتش الذي سلمها لأحد رجاله من التركمان المعروف باسم « ياغي سيان » سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٧م. للمزيد انظر ابن الاثير - الكامل في التاريخ - ج١٠، ص ١٣٨ - ١٣٩ و ص١٤٧- ١٤٨.

أبداها أهل المدينة بقيادة أميرهم ياغي سيان (١) ، هُلك كثير من الصليبيين حتى الموت (٢) ، كما فرَّ قسم منهم وعلى رأسهم بطرس الناسك، لكن بوهيموند حاول جمع بقية الصليبيين تحت إمرته ليستخدمهم في تحقيق أهدافه في تأسيس إمارة لنفسه في أنطاكية (٣) .

وبسبب خيانة أحد حراس السور ، تمكن الصليبيون من دخول المدينه بعد أن فتح لهم أحد أبوابها ، فسقطت بأيديهم في ٣ حزيران سنة ١٠٩٨م (٤) ، فقتلوا الآلاف من سكانها قدر عددهم بعشرة آلاف مسلم (٥) ، ونهبوا المدينة وخربوها وأقاموا فيها ثاني إمارة صليبية في الشرق .

بعد أن تمكن الصليبيون من إقامة إمارتي الرها وأنطاكية ، عقدوا مجلساً في محرم سنة ٤٩٢هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٨م بكنيسة القديس بطرس في أنطاكية ، حيث أجمع زعماؤهم على استئناف الزحف نحو مدينة القدس (٦) . وعلى الرغم من اشتراك بوهيموند أمير أنطاكية في هذا المجلس وإقراره الاشتراك بالزحف الى القدس، إلا أنه عندما بدأت جحافل الصليبيين بالسير نحو المدينة المقدسة تخلّف وفضّل البقاء في أنطاكية (٧) . وكذلك فعل بلدوين أمير الرها الذي كان مشغولاً بتنظيم إمارته (٨) .

قاد ريموند جموع الصليبيين المتجهة الى القدس في صفر ٤٩٢هـ/ كانون الثاني ١٠٩٩م، وتوغل في بلاد الشام متحاشياً المدن الداخلية الكبرى مثل حلب ودمشق، وفي أثناء تقدمهم اتصل ريموند ببعض القرى الصغيرة المستقلة وفي بعض مدن الشام مثل حمص وطرابلس ، وتعهد لهم بعدم مهاجتهم إذا قدموا المساعدات

---

(١) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ١٣٢ .
(٢) ابو الفداء ـ المختصر في أخبار البشر ـ ج٢، ص ٢١٠ .
(٣) د. امينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٢٢ .
(٤) الموسوعة الفلسطينية ـ ج٣، ص ٤٤٣ .
(٥) د. عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ٢٠٥ .
(٦) د. البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٢٧ .
(٧) د. عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ٢٢١ .
(٨) د. عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ٢٢٤ .

للفرنجة ، فحصل على موافقتهم (١) . ثم واصل الصليبيون تقدمهم عبر اقليم العاصي الى مصياف، ثم الى بعرين ومنها الى سهل البقاع واستطاعوا احتلال حصن الأكراد، ثم حاصروا عرقة في شمال طرابلس ، لكنهم تركوها بعد أن استعصت عليهم(٢) ، كما حاصروا جبلة حيث عقدوا اتفاقاً مع قاضيها تعهد فيه بدفع الجزية من المال والخيل (٣) . ثم تابع الصليبيون زحفهم نحو الساحل ، فسالمهم أهالي بيروت في حين تعرضت مدينة صيدا لهجومهم وذلك لعدم إعلانها تبعيتها لهم ، وكذلك استعصت عليهم مدينة عكا (٤) .

استمر زحف القوات الصليبية نحو الجنوب إلى أن وصلوا مدينة الرملة في فلسطين في أوائل حزيران من عام ١٠٩٩م وعقدوا فيها مجلساً للحرب ، ناقشوا فيه فكرة مهاجمة الفاطميين في مصر، على أساس أن مفاتيح مدينة القدس موجودة فعلاً في القاهرة، إلا أنهم في آخر الأمر قرروا الزحف مباشرة نحو المدينة المقدسة (٥) .

وفي السادس من حزيران من عام ١٠٩٩م ترك الصليبيون مدينة الرملة متجهين نحو القدس ،ولم يحل يوم ٧ حزيران إلا وكان الصليبيون جميعاً أمام أسوار القدس الشريف (٦) .

---

(١) رنسيان ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.
(٢) رنسيان ـ المرجع السابق ـ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.
(٣) د. امينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٢٧.
(٤) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٠، ص ٢٨٣. وانظر رنسيان ـ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.
(٥) د. عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ٢٤٢.
(٦) See: W. B. Stevenson, The Crusaders in the East, P 33 .

(٤)

حصار مدينة القدس

كانت مدينة القدس حين توجه الصليبيون نحو الشرق تحت حكم الأراتقة (١) المسلمين، في ظل سيادة السلاجقة الأتراك، حيث كان السلطان «ملكشاه» قد ولّى الأمير «أرتق بن أكسك» على مدينة القدس سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٦م (٢) ومن ثم ولاه تتش صاحب دمشق على فلسطين كاملة (٣) . وهكذا استمر حكمه للمدينة حتى وفاته سنة ١٠٩١م، فخلفه ولداه الأميرين «سكمان» و «إيلغازي» في حكم فلسطين والمدينة المقدسة (٤) .

استغل الفاطميون انشغال السلاجقة الأتراك بالغزو الصليبي، فخرج الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي (وكان الحاكم الفعلي لمصر) على رأس جيش ضخم من مصر نحو مدينة القدس لمحاصرتها والإستيلاء عليها ، فاضطر الأميرين الأرتقيين بعد حصار دام أربعين يوماً الى الانسحاب من المدينة في شوّال ٤٩١هـ / آب ١٠٩٨م (٥) ، فما كان من أهل المدينة إلا طلب الأمان من الوزير الفاطمي فأمّنهم واستولى على المدينة، وجعل الأمير إفتخار الدولة والياً عليها ، ولم تلبث أن سقطت بعد ذلك بقية مدن فلسطين في أيدي الفاطميين.

إلا أن الفاطميين وبعد إسترجاعهم للمناطق في فلسطين والساحل لم يدعموا نفوذهم فيها، مما أدى الى سقوط المدن الساحلية والداخلية بأيدي الصليبيين بسهولة ويسر.

---

(١) الأراتقة: وترجع تسميتهم الى زعيمهم الامير «أرتق بن أكسك» التركماني الأصل والذي يعتبر مؤسس دولة الأراتقة سنة ١٠٧٦م ، وكان يعمل أميراً في جيش السلاجقة وتمكن من الإستيلاء على بيت المقدس من أيدي الفاطميين.

(٢) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج١، ص ٨٥.

(٣) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ١٠.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٠، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٥) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ١٣٥.

لما أدرك الأمير الفاطمي إفتخار الدولة تقدم القوات الصليبية نحو بيت المقدس ، اتخذ كافة الاحتياطات والاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، حيث اهتم بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، وأمر رجاله بأن يقطعوا موارد الماء ويطمروا ما كان من آبار واقعة خارج المدينة، وقيل أنه وضع بها السم (١) . كما زوّد المدينة بكميات كبيرة من المؤن والماء والأسلحة ، وأحضر المواشي من النواحي والقرى المجاورة الى داخل المدينة ، كما دعّم أبراجه بالقطن والقش لتصمد أمام قذائف منجنيقات العدو (وكانت تلك هي الطريقة السائدة في ذلك الوقت لصيانة الحصون) .

كما أمر إفتخار الدولة بإخراج جميع من في المدينة من المسيحيين خوفاً من إنضمامهم الى الصليبيين (٢) ، لكنه سمح لليهود بالبقاء داخلها (٣) . واعتمد في دفاعه عن المدينة على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودانيين (٤) .

وفي ٧ حزيران سنة ١٠٩٩م إحتشدت جميع القوات الصليبية محاصرة لأسوار مدينة القدس وقد بلغت قواتهم حوالي (١٢) ألفاً من الرجالة وبين ١٢٠٠ ـ ١٥٠٠ فارس (٥) ، وتم نصب خيامهم في مواجهة الأسوار .

عانى الصليبيون كثيراً من حرارة الشمس، وأصبح توفير الماء لهم مشكلة ، فقد كان على بعض الفرسان قطع نحو ستة أميال يوميا لإحضار الماء، كما نفذت المؤن ولذلك لم يكن لهم أمل في النصر إلا بإحتلال المدينة بأسرع وقت ممكن ، لمعرفتهم بعدم قدرتهم على الصمود طويلا في حصار المدينة .

وفي ١٢ حزيران ذهب مجموعة من الأمراء الصليبيين في رحلة حج الى جبل الزيتون، وهناك أمرهم ناسك هرم بمهاجمة أسوار المدينة في صبيحة اليوم التالي، فعملوا بنصيحته وهاجموا الأسوار في ١٣ حزيران ، لكنهم بعد مرور بضع ساعات

---

(١) See: Setton & Baldwin, A History of the Crusades, Vol 1, P 333.

(٢) د. عبد الحميد زايد ـ القدس الخالدة ـ ص ٢٣.

(٣) See: Setton & Baldwin, Vol 1, P 333.

(٤) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج١، ص ٢٤٣.

(٥) See: Setton & Baldwin, Vol 1, P 333.

من القتال انهزموا، وكانت خسائرهم فادحة في الأرواح والعتاد (١) . وعلى أثر هزيمتهم تلك عقدوا اجتماعاً في ١٥ حزيران قرروا فيه حاجتهم الى المزيد من السلالم والمنجنيقات قبل معاودة الهجوم على المدينة .

وبينما كانوا في حيرة من أمرهم في كيفية الحصول على المواد اللازمة لهم ، وصلت في ١٧ حزيران من ذات الشهر الى ميناء يافا ست سفن محمّلة بالإمدادات من طعام ومعدات لصناعة آلات الحرب (٢) . على الفور بدأ العمل في صنع السلالم من الحبال، بينما أشرف القائدان الصليبيان غودفرى دى بويون وريموند على صنع القلاع والأبراج الخشبية المحمّلة على عجلات (٣) .

وفي أوائل شهر تموز من عام ١٠٩٩م وردت أخبار للصليبيين أن المصريين قرروا تجريد حملة لانقاذ بيت المقدس ، وأنها ستصل المدينة في غضون شهر واحد ، فتسابق الصليبيون في الاستعداد لشن هجومهم على المدينة قبل وصول الامدادات المصرية (٤) .

وفي العاشر من تموز تم الإنتهاء من إعداد برجين كبيرين ، وتم وضع أحدهما باتجاه السور الشمالي ، وتم وضع الآخر فوق قمة جبل الزيتون ، وذلك استعداداً للحظة المواجهة والقتال .

---

(١) See: Stevenson, The Crusaders in the East, P 33 .

(٢) See: Stevenson, P 34 .

(٣) See: Setton & Baldwin, Vol, P 335 .

(٤) See: Runciman; A History of the Crusades, Vol 1, P 278 .

(٥)

سقوط المدينة المقدسة

قـرر الصليبيون توقيـت الهجـوم الشامل على المدينة المقدسة في ليلة ١٣ ـ ١٤ تموز من عـام ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ ، باتباع أسلوب الخديعة ، وذلك عن طريق الإيهام بأن الهجـوم سيـتم من الجـهة الشمالية للسور الغربي ، على أن يتم الهجوم الفعلي من الجـهـة الشرقية للسور الشمالي وجبل صهيون (١) . وجـعلوا هدفـهم الأساسي احضار الأبراج الخـشبية واسنادها الى الأسوار، فتم قضاء يوم ١٤ تموز في انجاز هذا العمل، في حين استـمر المسلمون بقذفهم بالحجارة والحمم النارية من خلف الأسوار.

في مسـاء ذلك اليـوم كان بـرج القائـد ريمونـد (Raymond) قد ارتكـز الى السـور من جـهة جبل صهيون ، إلا أن حاكم بيت المقدس الأمير إفتخار الدولة قام بقـيـادة قـوات الدفـاع بنفـسـه من تلك الجـهة ، ولذلك لم يتمكن رجال ريموند من الاقتراب من السور (٢) .

في صـبيحـة اليـوم التالي أي في ١٥ تمـوز تمكـن القائـد غودفري (Godfrey) وأخـوه يوستاس (Eustace) من إقـامة جسر يصـل بين برجهم الذي أقاموه، وقمة السور الشمالي وعلى بعد قريب من باب الساهرة، وفي منتصف النهار تمكن إثنان من الفرسان الإنتحاريين وهما ليتولـد (Letold) وجلبرت (Gilbert) من قيـادة فرقـة كـبيرة عبر الجسر الى قمة السور وتبعهم بعد ذلك غودفري بنفسه (٣) .

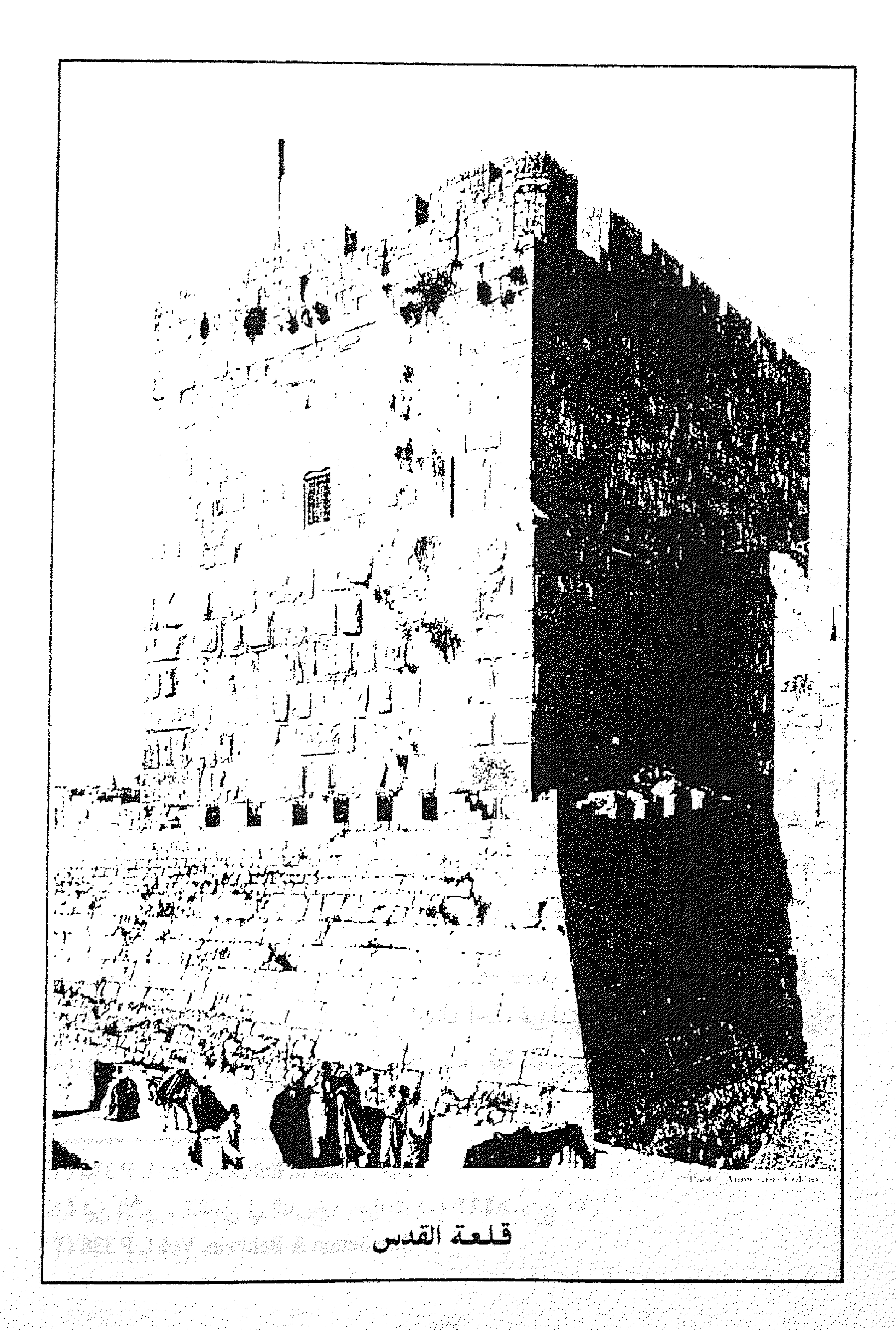
وعند سـقـوط جـزء من السور بأيدي الصليبيين ، دخلوا المدينة على سلالم من حـبال صنعوها خصيصا لذلك ، وفي الحال أخذ غودفري يقسم العمل على الأمراء، فأرسل بعـضهم لفتح باب العمود ليدخل منه بقية الصليبيين .

---

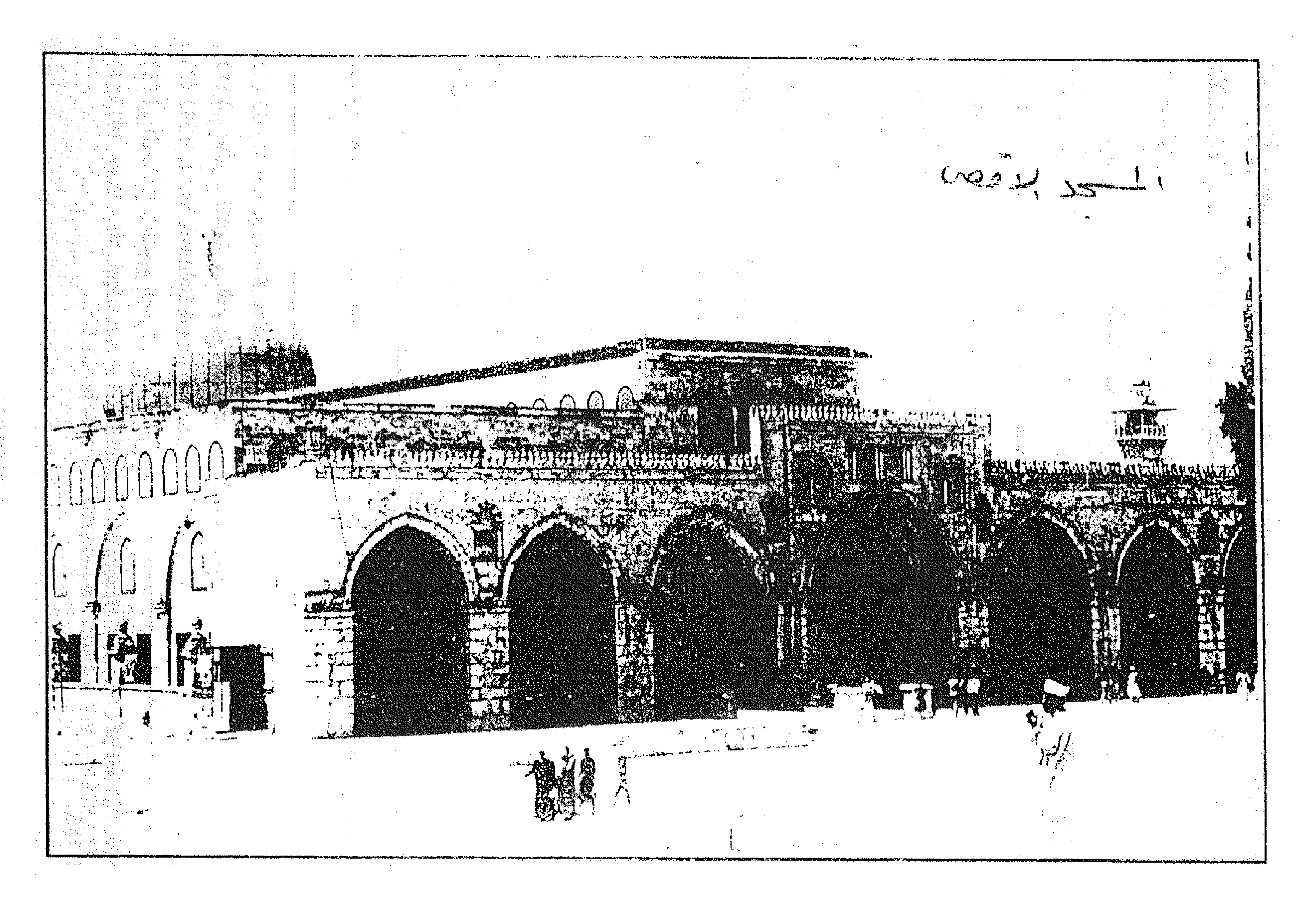
(١) See: Setton & Baldwin, Vol 1, P 336 .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٤٩٢هـ ـ ج ١٠ .

(٣) See: Setton & Baldwin, Vol 1, P 336 .



قلعة القدس



المسجد الأقصى

ولّـى المسلمـون أدبارهم نحـو الحرم الشريف، ولما تحققوا من عدم قدرتهم على المقـاومـة، ووعدهم القائد تانكرد بالابقاء على حياتهم، سلّموا له . إلا أن الصليبيين لم يعـملوا بوعد تانكرد للمسلمين، وانما قاموا بذبح كل من كان بالمسجد (١) .

توجـهت القـوات الصليـبيـة الأخرى عبر الشوارع الرئيسـة للمدينـة ، وضيقوا الخناق على المدافـعين عنهـا في الجهة الجنوبية الغربية حيث كان افتخار الدولة مشتبكاً مع قـوات ريمـوند . وعند الظهيرة توقف إفـتـخار الدولة عن القتال واحتمى في قلعة المدينة عند باب الخليل ، وعـرض على القـائد ريموند تسليم القلعة بكل ما فيها من كنوز ، مـقـابل السماح له ولمن معه من الحراس بمغادرة المدينة . قبل ريموند شروط التسليم واسـتـولى على القلعـة وسـمح لإفـتـخار الدولة بمغادرة المدينة والانضمام الى الحاميـة المصريـة الموجـودة في عسقـلان (٢) ، فكانوا الفئـة الوحيدة من مسلمي بيت المقـدس التي نجت من وحشية الصليبيين ومن المذبحة التي قامت في المدينة ، حيث انطلق الصليـبيـون في شـوارع المدينة والى المسـاجد والمنازل يذبحون كل من صادفهم من الرجـال والنساء والأطفال (٣) .

أمـا اليـهود فقد احتموا جميعاً في معبدهم الكبير، إلا أن الصليبيين أشعلوا النار فيه وأحرقوا جميع من كان فيه (٤) .

ويذكـر المؤرخ الفـرنسي فوشيه دي شارتر (Fulcher De Chartre) الذي كان مـرافـقـاً للحملة الصليبية الأولى وأرّخ لها يوماً بيوم، بقوله «كانت القدم تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين» (٥) .

أمـا الدولة الفـاطمـيـة فـقـد تلقت تلك الأخبار في برود شديد وظلت تغط في سباتها العميق، وكذلك بغداد، حيث اتجه القاضي زين الدين أبوسعد الهروي قاضي

---

(١) See: Stevenson, P 34 - 35 .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ حوادث سنة ٤٩٢هـ ـ ج ١٠ .

(٣) See: Setton & Baldwin, Vol 1, P 337 .

(٤) أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ ج ٥ ـ ص ١٥٠ .

(٥) See: Fulcher of Chartre, A History of the Expedition to Jerusalem, New York, 1973, P 186 .

دمشق ليخبر الخليفة العباسي بالكارثة التي حلت بالمسلمين في بيت المقدس (١) ، كما اجتمع المستنفرون من دمشق في بغداد واستغاثوا بالخليفة العباسي، لكن الخلافة العباسية لم تحرك ساكنا.

هذا وكان لهذه المذبحة أثرها السيء في جميع أنحاء العالم واستاء لها كثير من المسيحيين ، مما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين إلى الإعتراف بأن مذبحة تموز من عام ١٠٩٩ كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى (٢) .

(١) ابن الجوزي ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٩٢هـ .

(٢) See: Runciman; A History of the Crusades, Vol 1, P 278 .

(٦)

الوصاية على المدينة المقدسة

في يوم ١٧ تموز من عام ١٠٩٩م بدأ الصليبيون بإخلاء الشوارع والبنايات من الجثث المتراكمة، وبدأوا بالتشاور في المشكلة الرئيسية التي واجهتهم وهي عدم وجود رئيس أو زعيم يعترفون جميعاً بزعامته ، فقد توفي المندوب البابوي أدهمار الذي كان حتى وفاته سنة ١٠٩٨ يقوم بدور الزعيم الروحي للصليبيين (١) .

وعندما تشاور الأمراء الصليبيون ، قرروا فيما بينهم استبعاد فكرة إقامة حكومة دينية في المدينة، وتم الاتفاق على اختيار رئيس علماني لها .

اتجهت الآراء جميعاً الى إنتخاب الأمير غودفري دي بويون حاكماً على بيت المقدس، لكنه رفض ذلك في باديء الأمر، ثم قبل تولي حكم المدينة في ٢٩ شعبان ٤٩٢هـ / ٢٢ تموز عام ١٠٩٩، إلا أنه أنكر اللقب الملكي وقرر أن يتخذ لنفسه لقب حامي بيت المقدس أي المدافع عن القبر المقدس
(Advocatus Sancti (٢) Sepulchri)

وهكذا يبدو واضحاً أن اختيار غودفري لهذا اللقب جاء إعترافاً منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة ، وأن لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها (٣) .

وفي أواخر كانون الأول سنة ١٠٩٩م قام البابا أوربان الثاني بتعيين دايمبرت (٤) بطريركاً لبيت المقدس ، وما أن مضت بضعة أشهر على تنصيبه حتى استحكم النزاع في بيت المقدس بين «غودفري» والبطريرك «دايمبرت» حول من

---

(١) الموسوعه الفلسطينيه ـ ج٣، ص ٥٤٣.

(٢) See: Runciman, Vol 1, PP 292 - 293 .

(٣) See: Stevenson, P 36 .

(٤) دايمبرت : هو رئيس أساقفة مدينة بيزا الايطالية ، وكان قد وقف الى جانب البابا أوربان الثاني في مشروعه الصليبي لاستخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين في الشرق .

سيفـرض سلطتـه وحكمه في البلاد، وما لبث أن مرض غودفري بالحمى ومات في ١٨ تموز من عام ١١٠٠ (١) ، مما أثار من جديد مشكلـة اختيار من سيحـل محله في حكم بيت المقدس.

كـان غـودفـري قـد أوصـى قبل وفاته بأن يخلفـه أخـوه بلـدوين أمير الرها في الحكم (٢) ، فنالت هذه التـوصـيـة رضا وموافقة جميع الأمـراء والفرسـان ، إلا أنها لم تكن ترضي البطريرك دايمبرات.

وفي يـوم عـيـد الميلاد من عـام ١١٠٠م تم تتويـج الأمير بلـدوين في كنيسـة العذراء في مدينـة بيـت لحم (٣) ، حـيـث وضـع البطـريرك دايمبرت التـاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية .

بعـده تقلـب العديد من الملوك على عرش مملكـة بيـت المقـدس الصليبية التي دامـت واسـتـمـرت ٨٨ عـاماً ، حتى ظهـر صلاح الديـن الأيوبي وعاد ليحررها من أيديهم، ويعيد لها السيادة العربية الإسلامية .

.See: Stevenson, P 42 (١)

.See: Stevenson, P 42 (٢)

.See: Setton & Baldwin, Vol 1, P 382 (٣)

الفصل الثاني

مقاومة غزو الفرنجة
في القرن السادس الهجري

الزنكيون
وتوحيد القوى الإسلامية ضد الصليبيين

كما أسلفنا سابقاً كان لإنقسام العالم الإسلامي وتفككه الأثر الأكبر في نجاح الحملة الصليبية الأولى ، وامتداد نفوذ الصليبيين على الأراضي التي احتلوها وإنشاء إمارات صليبية عليها كانت تتألف من ١ ـ مملكة بيت المقدس ٢ ـ إمارة الرها ٣ ـ إمارة أنطاكية ٤ ـ إمارة طرابلس.

لكن على الرغم من جهودهم وهجماتهم المتكرره لم يستطيعوا التقدم نحو داخل بلاد الشام كحلب وحمص ودمشق مثلاً وذلك لسببين:ـ

١ ـ همهم الوصول الى مدينة القدس لتوطيد نفوذهم فيها.
٢ ـ المقاومة الإسلامية التي لاقوها، وكانت بمثابة الدفاع الغريزي أو العفوي في الوقوف في وجه العدو بكل الوسائل المتاحة.

فمنذ الحملة الصليبية الأولى حصل الصدام بين المسلمين والصليبيين، ولكن النجاح والنصر لم يكن حليف المسلمين للأسباب التي ذكرناها آنفاً والتي أدت الى بعثرة قوتهم وإضعافها، ولذلك لم يحسنوا الدفاع رغم ما بذلوه من جهود.

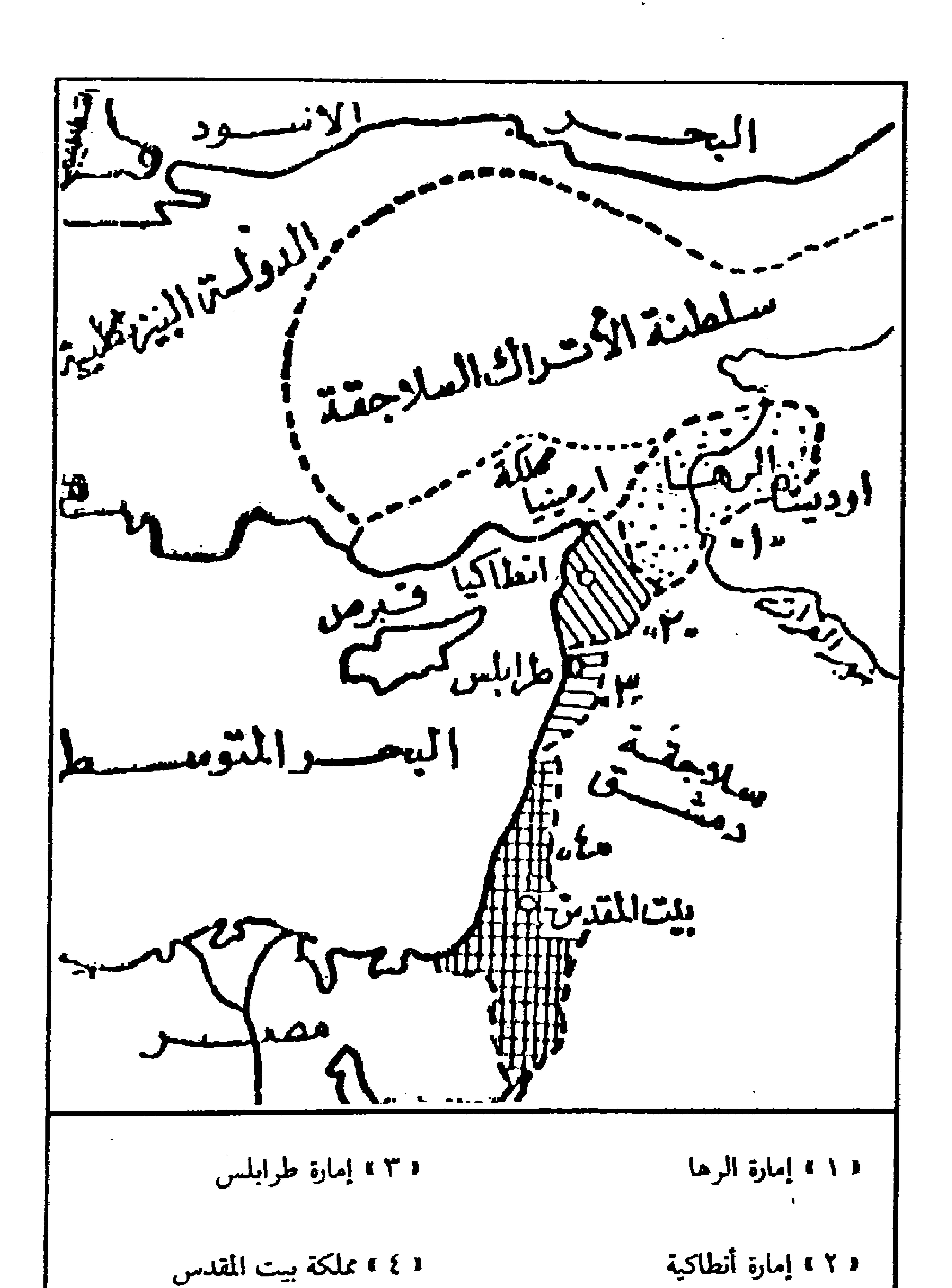
وفي وسط ذلك الغمام الذي مرَّ بالأمة الإسلامية ، انبعثت من جديد حركة الجهاد العربية الإسلامية بظهور القيادات الزنكية في الموصل ، والتي سعت الى توحيد القوى الإسلامية المبعثرة في الإمارات المتناحرة في بلاد الشام تحت قيادتها الموحدة للتصدي للغزاة الصليبيين.

١ ـ قيام الدولة الزنكية وتأسيسها :

كان آق سنقر والد عماد الدين زنكي أول من ظهر على الساحة السياسية من أفراد هذه الأسرة التي تنتسب الى قبائل الساب يسو التركمانية [١] .

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٣٩.



البحر الاسود
الدولة البيزنطية
سلطنة الأتراك السلاجقة
مملكة ارمينيا
الرها
انطاكيا
قبرص
طرابلس
البحر المتوسط
سلاجقة دمشق
بيت المقدس
مصر
الفرات
« ١ » إمارة الرها
« ٢ » إمارة أنطاكية
« ٣ » إمارة طرابلس
« ٤ » مملكة بيت المقدس

بدأ آق سنقر حياته مملوكاً ورفيقاً لطفولة وشباب السلطان السلجوقي ملكشاه ، ولما اعتلى ملكشاه عرش السلطنة ، جعله من المقربين اليه وقيل أعطاه حجابته (١) ، وأطلق عليه لقب قسيم الدولة (٢) .

أثبت آق سنقر لملكشاه أنه أهل لهذه الثقة الممنوحة له ، فكافأه بولاية حلب (٣) ، ولكن ما لبث آق سنقر أن ذهب ضحية للنزاع بين أفراد الأسرة السلجوقية سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م (٤) ، فلما تولى العرش بركيا روق ابن ملكشاه ، جعل عماد الدين زنكي الذي كان ما يزال صبياً في العاشرة من عمره حين قتل والده في حاشية والي الموصل (٥) .

وهكذا أكتسب عماد الدين زنكي خبرة في الادارة والحرب من موقعه هذا في فترة مبكرة (٦) ، أتيح له بعدها الدخول في مشاكل العراك والنزاع بين الخليفة وأعدائه ، ثم دخل معترك الحياة السياسية حين حكم واسط والبصرة (٧) ، ثم أتيح له الظهور في محيط الأمراء المقربين من السلطان اثر تزوجه من أرملة أحد كبار أمراء الجيش (٨) . وعندما شغر منصب والي الموصل بالوفاة ، كان عماد الدين زنكي أكبر المؤهلين له في نظر أعيان الموصل والخليفة العباسي والسلطان السلجوقي على السواء، فسُلمت إليه في سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م مع الجزيرة (٩) ، مضافاً اليه ما يغنمه من بلاد الشام . كما سلّم إليه السلطان محمود السلجوقي ولديه ألب أرسلان وفروخشاه ليربيهما ، فعرف باسم أتابك (١٠) .

---

(١) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ ج١، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين ـ ج١، ص ٢٤.
(٣) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج١، ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٤) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان، ج١، ص ٢٤١، وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١، ص ٢٦.
(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١، ص ٢٧.
(٦) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج١، ص ٣٧.
(٧) ابن واصل ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ ج١، ص ٣٠.
(٨) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٠، ص ٦٤٣.
(٩) ابن الأثير ـ المرجع السابق ـ ج ١٠، ص ٦٤٣ ـ ٦٤٥، وانظر ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج٢، ص ٣٢٨.
(١٠) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج٢، ص ٣٢٨.

٢ ـ جهود عماد الدين زنكي في توحيد الجبهة الإسلامية

عكف عماد الدين زنكي على تنظيم إمارته الجديدة في الموصل وتقويتها، فعمد الى اختيار الرجال الصالحين ليجعل منهم أعواناً له، وعيوناً ورصداً يقف بواسطتهم على ما يحدث في أرجاء البلاد ، كما جعل البعض منهم وكلاء له في عواصم البلاد المجاورة ليكون على علم بكل ما يجري من حوله.

تميز عماد الدين عن غيره من أتابكة عصره بسيره الحثيث نحو توحيد إمارات بلاد الشام تحت سيادته، والتوجه بالقوى الموحدة ضد الإمارات الصليبية، فبدأ قبل كل شيء بتقوية إمارته بالإستيلاء على المناطق الاستراتيجية الهامة والمحيطة به مثل البوازيج ونصيبين وسنجار ومنطقة الخابور وحران وجزيرة ابن عمر (١) . كما اهتم بالمناطق الجبلية المحيطة بالموصل وكانت تابعة للأكراد، فاكتفى بهدم قلاع المهاجمين وقبول ولاء من يدخل في طاعته من زعماء عشائرهم وأبقاهم في أماكنهم (٢) .

أما أول أعمال عماد الدين زنكي في بلاد الشام، فكان ضمّه حلب وقلعتها الى إمارته في الموصل ، وكان ذلك في محرم سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م (٣) ، وما أن رتّب أموره بها حتى توجه بأنظاره نحو أواسط وجنوب بلاد الشام، فاستولى على حماة ثم حاصر حمص عدة مرات خلال سنتي ١١٣٦ ـ ١١٣٨م ولكن بدون جدوى ، ولم يوفق بذلك بسبب هجمات الصليبيين والبيزنطيين على المناطق المحيطة بحلب واضطراره الى حمايتها (٤) . ومن ثم استولى على بعلبك وضمّها الى ولايته وعين عليها نجم الدين أيوب والياً، ثم فتح المجدل وبانياس.

هذا وقد حاصر عماد الدين زنكي مدينة دمشق مرتين، حاول خلالها مهاجمتها والسيطرة عليها ولكن محاولاته باءت بالفشل ، حاصرها في المرة الاولى عام ٥٢٩هـ

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٠، ص ٦٤٥ ـ ٦٤٧.
(٢) ابن الأثير ـ المرجع السابق ـ ج ١١، ص ١٤ ـ ١٦.
(٣) ابن الأثير ـ المرجع السابق ـ ج ١٠، ص ٦٤٩ ـ ٦٥١.
(٤) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ٢٦٣.

/ ١١٣٥م لكنه فشل أمام إستبسال المدافعين عنها (١) . أما المرة الثانية فقد كانت عام ١١٤٠م ودام حصاره لها سبعة شهور وانتهت بمهاجته للمدينة، إلا أن «معين الدين أنر» حاكم دمشق وهو أحد الأتابكة السلاجقة ، طلب من صليبي بيت المقدس مساعدته في فك الحصار عن دمشق مقابل تسليمهم مدينة بانياس بعد الاستيلاء عليها، فوجد عماد الدين نفسه مضطراً الى الانسحاب شمالاً (٢) .

وهكذا سعى عماد الدين زنكي الى توحيد ما أمكن من الإمارات الصغيرة المتناثرة حول إمارته في حلب لتعزيز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية من جهة ، ولتثبيت مركزه فيها بعد أن اتخذها كنقطة إنطلاق لتوحيد جبهة بلاد الشام من جهة أخرى. في حين لم يتوان عن مهاجمة صليبي إمارة أنطاكية ، ففتح حصن «الأثارب» سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م (٣) وهو الحصن الذي كانت فيه قوة صليبية كبرى مافتئت تهدد حلب (٤) ، فكان لفتحها جانب كبير من الأهمية ، حيث أن الأمور في بلاد الشام بدأت تسير لصالح المسلمين ، قال ابن الأثير في ذلك « . . . وقد استدار المسلمون بتلك الاعمال، وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار قصارهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع» (٥) .

ومن ثم توغل عماد الدين زنكي عبر أراضي أنطاكية ، فنزل على حصن «حارم» المنيع، ولم يتراجع عنه حتى منحه أهله نصف دخلهم، وبهذا انقلبت الأوضاع القائمة بين حلب وصليبي أنطاكية لمصلحة المسلمين في حلب، كما أتبع ذلك الاستيلاء على خمسة معاقل أشهرها معرة النعمان وكفر طاب وزردنا وتل أغدى (٦) .

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٢) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٧٣ ـ ٧٥ .

(٣) اختلف المؤرخون حول تاريخ فتح هذا الحصن ـ انظر عماد الدين خليل ـ عماد الدين زنكي ـ ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٠، ص ٦٦٢ .

(٥) ابن الأثير ـ المرجع السابق ـ ج ١٠، ص ٦٦٣ .

(٦) د. أمينة البيطار ـ المرجع السابق ـ ص ٤٧ .

لكن هذه الانتصارات التي حققها عماد الدين زنكي ، دعت البيزنطيين والصليبيين الى التوحد والدخول معه في معارك عديدة مكنتهم من الاستيلاء على بعض الحصون التي كان قد فتحها من قبل مثل حصن الأثارب ومعّرة النعمان، لكن عماد الدين وفي خلال مدة تقل عن السنتين ، تمكن من استراجاع كل ما أحتله البيزنطيون من حصون محيطة بحلب (١) .

إلا أن أهم ما حققه عماد الدين زنكي من انتصارات هو استيلائه على إمارة الرها، بعد أن تركها أميرها جوسلين الثاني عابراً الفرات الى تل باشر على الضفة الغربيه للفرات، ليهاجم ممتلكات عماد الدين في منطقة بعيدة عن أماكن تجمعه، ظناً منه أن عماد الدين مشغولاً في ديار بكر عن مهاجمة الرها، لكن عماد الدين علم بوضع الرها عن طريق رجاله، فترك ما هو فيه وأنقض عليها فوراً، محاصراً لها في جمادى الاولى ٥٣٩هـ / تشرين الثاني سنة ١١٤٤م ، ولم يستطع جوسلين العودة بمفرده ، وبقي في مكانه بانتظار وصول امدادات من إمارتي أنطاكية وبيت المقدس (٢) .

حاول عماد الدين زنكي دخول مدينة الرها سلمياً، لكن أهالي المدينة رفضوا التسليم وقاوموا الحصار الذي دام ثمانية وعشرين يوماً، فلم يجد عماد الدين بداً من مهاجمتها ونسف أبراجها حتى سقطت بيده في ٢٦ جمادى الثاني سنة ٥٣٩ هـ / ٢٣ كانون الاول سنة ١١٤٤م (٣) .

حاول عماد الدين زنكي اتباع سياسة حكيمة لكسب ود أهالي المدينة ، حيث أمر جنده بالكف عن القتل ورد كل ما استولوا عليه من غنائم، كما أمرهم بإعادة كل من أسروه من الرجال والأطفال والنساء الى ديارهم (٤) ، كما سمح للمسيحيين الشرقيين بالعودة الى مدينتهم بعد أن أخرجوهم منها الصليبيون، كما احتفظ لهم بكنائسهم في حين أمر بتدمير كنائس الصليبيين ، وبذلك أوجد عماد الدين لنفسه

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج١ ، ص ٨٣.
(٢) عماد الدين خليل ـ عماد الدين زنكي ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٣) ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية ـ تحقيق محمود زايد ـ ص ١١٥ .
(٤) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج١ ، ص ٨٨. وانظر ابن قاضي شهبة ـ ص ١١٦ .

زعامة محلية تؤيده بوجود حاميته فقط في المدينة للدفاع عنها.

بعد أن منّ الله على عماد الدين بفتح إمارة الرها انطلق يهاجم القلاع والحصون الصليبية في الشام، الا أنه علم بمؤامرة تدبر ضده في الموصل وبمقتل نائبه فيها، فاضطر الى العودة الى الموصل لإقرار الوضع فيها (١) .

لم يكد عماد الدين زنكي يفرغ من إخماد فتنة الموصل حتى أعد حملة كبيرة لقتال الصليبيين دون تحديد وجهته، وفي أثناء خروجه علم بتآمر الأرمن في الرها، فأسرع اليها وقضى على المؤامرة ومن ثم توجه الى قلعة «جعبر» على الفرات وكانت تتبع لبني عقيل ، فحاصرها بقصد فتحها (٢) ، وفي أثناء حصارها قتل عماد الدين فجأة على يد أحد خصيانه ، فرأى غالبية قادة الجند وزعماء الموصل تسليم الإمارة الى ابن عماد الدين زنكي الأكبر المعروف بغازي ، على حين رأى البعض الآخر من قادة الجند كأسد الدين شيركوه إعطاء الإمارة الى نور الدين محمود والتوجه بالجند إلى حلب (٣) .

أدى هذا الاختلاف في الأراء والمصالح حول السلطان بعد عماد الدين زنكي إلى تقسيم إمارته الى قسمين، غازي على الموصل، ونور الدين على حلب، ولكن بالرغم من هذا التقسيم بقي التضامن والترابط قوياً بين الأخوين وبقيت للابن الأكبر مكانة الزعامة ، كما أدى تضامن الأسرة الى تمتعهم بحكم مناطقهم حكماً مستقلاً.

نتائج سقوط إمارة الرها :

كان لفتح إمارة الرها أصداء هامة في كل من المعسكرين الإسلامي والصليبي، فقد تغيرت نظرة العرب والمسلمين الى الصليبيين، وانحلت عقدة الخوف لديهم، وتحولوا من حالة الدفاع الى حالة الهجوم مدفوعين الى ذلك بالدعوة الى الجهاد، فدفع هذا من جاء بعد عماد الدين للسعي للقضاء على الصليبيين (٤) ،

---

(١) ابن الأثير ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ـ ص ٧٠ ـ ٧١.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ١٠٩.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ١١٠.
(٤) ابن الأثير ـ التاريخ الباهر ـ ص ٦٩.

كما أدى هذا الفتح على صعيد الإمارة الزنكية الى اتصال أملاك الزنكيين ، حيث كانت تقف إمارة الرها حاجزاً منيعاً يمنع أي اتصال بين حلب والموصل ، كما فتحت الطريق الى آسيا الصغرى.

أما بالنسبة للصليبيين فقد اهتز كيانهم ، واعتبر الغرب الاوروبي سقوط إمارة الرها إيذاناً بضياع الإمارات الصليبية في الشرق ، مما دعاهم الى ارسال حملة صليبية ثانية.

٣ ـ الحملة الصليبية الثانية

أثر سقوط إمارة الرها ، اتخذ الفرنجة قراراً بإرسال حملة صليبية جديدة عُرفت باسم الحملة الصليبية الثانية ، وقادها كل من لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث امبراطور المانيا (١) .

اتخذت هذه الحملة طريق البر دون البحر ، فاشترط البيزنطيون مساعدة الحملة بتعهد رؤسائها اعلان تبعيتهم للبيزنطيين منْ جهة، الى جانب تسليمهم كل ما يستولون عليه من ممتلكات السلاجقة في آسيا الصغرى،من جهة أخرى.

رفض الامبراطور الألماني كونراد الثالث الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطي ، ولذلك حُرم من المساعدات البيزنطية ، كما أنه أخطأ بإجتيازه طريق أواسط آسيا الصغرى ، فتعرض لهجمات شديدة من قبل السلاجقة أدت الى فشله (٢) . في حين أذعن الملك لويس السابع لرغبة الامبراطور بتقديم الولاء والتبعية، وسلك الطريق المحاذي لساحل البحر الابيض المتوسط حتى أنطاليا ومنها ركب البحر الى أنطاكية .

حينما وصل الملك لويس السابع مع جنوده الى أنطاكية، وجد نفسه وسط آراء واتجهات متعارضة يدعو اليها الأمراء الصليبيون ، يهدف كل منهم الى تحقيق أهدافه الخاصة، وقد أفلح ملك بيت المقدس بلدوين الثالث في صرف الملك لويس السابع عن السعي لتحقيق هدفه من الحملة ، وانما أقنعه بمهاجمة مدينة دمشق والاستيلاء عليها (٣) .

وصل الصليبيون الى دمشق وفرضوا الحصار عليها في ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ / تموز ١١٤٨م (٤) ، وعلى الرغم مما بذلوه من جهد فانهم فشلوا في تحقيق أهدافهم لعدة أسباب منها :ـ

---

(١) د. سعيد عاشور ـ أوروبا في العصور الوسطى ـ ص ٤٥٢ .
(٢) د. عاشور ـ أوروبا في العصور الوسطى ـ ص ٤٥٣ .
(٣) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٥٧ .
(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١ ، ص ٤٨ .

١ ـ قوة دفاع معين الدين أنر حاكم دمشق عن المدينة ، وتهديده الصليبيين بتسليمها للزنكيين.

٢ ـ خوف الصليبيين من وصول الزنكيين وأنصارهم لنجدة أهل دمشق.

٣ ـ شدّة الحر وقلّة الماء.

نتج عن فشل الحملة أن قويت نفوس العرب والمسلمين الذين كانوا يخشون دائماً قدوم حملات صليبية جديدة ، فتعمل على تأسيس إمارات أخرى جديدة . وبفشل الحملة الصليبية الثانية انتعشت آمال أهل الشام ووثقوا بقوتهم ، وبدأ نور الدين محمود زنكي في حلب يعمل على استغلال الفرقة بين الصليبيين ، لينفرد بكل دولة صليبية على حدا .

٤ ـ جهاد نور الدين محمود للصليبيين :

صمم نور الدين محمود زنكي على حمل رسالة أبيه في جهاد الصليبيين واتمام عملية التوحيد بين القوى الإسلامية، لكنه وبعد مقتل أبيه عماد الدين بسبعة أيام، فوجىء بهجوم شنّه بوهيموند أمير أنطاكية (١) بعد علمه بمقتل عماد الدين على كل من مديتني حماة وحلب، ففاجأ الناس وهم آمنون، وتمكن من قتل وسبي عدد كبير منهم (٢) ، لكن أسد الدين شيركوه وكان يعمل في قيادة نور الدين نهض لرد هذه الغزوة وتخليص الأسرى، وتمكن من تحقيق جزء من أهدافه واستنقذ عدداً كبيراً من الأسرى وعاد مظفراً الى حلب (٣) .

هذا وقد تلقى نور الدين هجمة اخرى من قبل ابن حاكم الرها السابق جوسلين، الذي نهض من قاعدته الجديدة «تل باشر» محاولاً استعادة إمارة الرها، لكن نور الدين تمكن من القضاء على هذه المحاولة نهائياً (٤) .

بدأ نور الدين أعماله العسكرية ضد الصليبيين بالهجوم على الأراضي التابعة لإمارة أنطاكية بقصد تحريرها، وفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م بدأ بشن هجومه على الحصون المحيطة بحلب واستولى على بعض منها (٥) . لكن نور الدين ما لبث أن واجه تهديد الحملة الصليبية الثانية التي خرجت في الأصل كرد فعل لسقوط الرها ، وحين انجلى خطر هذه الحملة استغل نور الدين محمود نتائجها أفضل استغلال ، وخاصة من الفرقة التي حدثت بين الإمارات الصليبية ، فسعى الى توسيع أملاكه على حسابها.

بدأ نور الدين أعماله ضد إمارة طرابلس بالتعاون مع معين الدين أنر ، أثر إستنجاد أميرها بها، طالباً منها التدخل السريع لأخذ حصن «العريمه» القريب من

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١ ، ص ٤٨ .
(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١ ، ص ٤٨ .
(٣) ابن قلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ٢٨٨ .
(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١، ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٥) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ١٢٢ .

طرابلس (١)، خوفاً من قدوم برتراند ابن عمه وهو من أمراء الحملة الصليبية الثانية، الذي أخذ يهدده في عاصمته ويتهمه بقتل أبيه . فسار نور الدين محمود وأنر باتجاه حصن العريمة ونازلا الحصن حتى ملكاه وأسرا من به وقفلا عائدين (٢) .

بعدها عاد نور الدين لمهاجمة إمارة أنطاكية وما حولها ، فضرب على أنطاكية الحصار مستمداً العون من أنر حاكم دمشق (٣) ، وفي تلك الأثناء تمكن من فتح مدينة «أفامية» آخر حصن للصليبيين شرقي العاصي في ١٨ ربيع الأول سنة ٥٤٥هـ/ تموز ١١٤٩م ، فأدى فتحه هذا الى جعل أراضي إمارة أنطاكية الصليبية تقتصر على الساحل. ومن ثم هادن نور الدين أهالي أنطاكية وقرر معهم أن يكون ما قرب من المناطق الحلبية لنور الدين وما قرب من أنطاكية للصليبيين (٤) .

على اثر ذلك اهتم نور الدين مع غيره من أمراء المسلمين بتصفية بقية أراضي إمارة الرها إثر تنازل أرملة أميرها السابق جوسلين عن ممتلكاتها الى الامبراطور البيزنطي ، فكان نصيب نور الدين منها « راوندان » و « تل باشر » قاعدة الإمارة الجديدة والعديد من الحصون والأبراج (٥) .

---

(١) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ٣٠٠.

(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١، ص ٥٥ .

(٣) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٠٤.

(٤) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٠٥.

(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١، ص ٧٢.

٥ ـ توحيد بلاد الشام تحت إمرة نور الدين زنكي

على الرغم من مشاغل نور الدين مع الصليبيين ، إلا أنه كان مهتماً بتوحيد بلاد الشام تحت إمرته، وحين توفي أخوه الأكبر غازي صاحب الموصل سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م (١) وحلّ محله أخوه الأصغر قطب الدين مودود ، رأى نور الدين أنه قد أصبح رأس الأسرة ولا بد من تثبيت حقه مع الحفاظ على تضامن البيت الزنكي، فتقدم نور الدين الى سنجار في الجزيرة الشامية ، حيث التقى هناك في مناورة عسكرية بأخيه قطب الدين ، والتي انتهت باتفاق الطرفين على تسوية أوضاع الإمارة ، على أن يأخذ نور الدين كلاً من «الرحبة» و «حمص» ويسلّم لأخيه قطب الدين «سنجار» ، وبذلك أزيل التداخل بين أملاكهما واعترف بنور الدين رأساً للأسرة الزنكية.

أما في دمشق فقد اتخذت الدولة البورية سياسة عقد المعاهدات والتحالفات مع الغير، في سبيل الحفاظ على وجودها وكيانها من المحيطين والطامعين بها من المسلمين والصليبيين على حد سواء ، إلا أنها كثيراً ما حالفت الصليبيين لتعمل على وقف تقدم الزنيكيين في أراضيها.

ونتيجة لكثرة تحالف الدمشقيين مع الصليبيين ، سعى الزنكيون جاهدين للقضاء على الدولة البورية وضم دمشق لاملاكهم، فسعى عماد الدين زنكي لتحقيق ذلك لكنه فشل، وحين تولى ابنه نور الدين الحكم سار على نهج أبيه، لكن الظروف معه اختلفت الى حد ما، وذلك عندما هاجم الصليبيون عاصمة حلفائهم دمشق سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م (٢) ، فاضطر حاكمها معين الدين أنر الى الاستعانة بنور الدين ضدهم، الذي تمكن من فك الحصار عنهم، مما جعل لنور الدين مكانة خاصه لدى أهلها.

وحينما توفي معين الدين أنر ، تولى حكم دمشق «مجير الدين أبق بن محمد بن بوري» ، ولم يكن أهلاً للمسؤولية وتسبب في اثارة الصراع داخل إمارته، مما أطمع

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٦٤ .

(٢) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٦٥ .

فيها من يحيط بها في الشمال والجنوب، ولما كان مجير الدين أبق يخشى نور الدين أكثر من خشيته للصليبيين ، عاهد الصليبيين واتفق معهم ضد من يقصدهم من عسكر المسلمين (١) ، في حين وقف نور الدين مدافعاً وحامياً للمناطق المهددة من الصليبيين، مما زاد من حب الأهالي له وبذل الطاعة على الرغم من بقائهم على دفع المال لحلفائهم الصليبيين (٢) .

لما تمكن الصليبيون من احتلال مدينة عسقلان آخر المعاقل الفاطميه على الساحل الفلسطيني (٣) ،وامتد نفوذهم على ساحل الشام وفلسطين من الاسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب ، وانفتح الطريق أمامهم لغزو مصر ، كان رد نور الدين على احتلال عسقلان بضم دمشق الى سلطانه والقضاء على دولة البوريين في صفر سنة ٥٤٩هـ/ تموز ١١٥٣م (٤) ، وهي الدولة التي كانت تقف حائلاً بينه وبين توحيد بلاد الشام تحت امرته، فاستقبله أهلها بالحفاوة والتكريم بالرغم من استنجاد صاحبها بالصليبيين (٥) الذي لم يجُده نفعاً . وبضم دمشق أصبحت أملاك نور الدين زنكي تمتد من الرها والجزيرة شمالاً الى شرقي الاردن جنوباً.

وفي الفترة التي أعقبت فتح مدينة دمشق ، اتخذ نور الدين لنفسه موقفاً من الصليبيين أقرب للدفاع منه للهجوم ، حيث أبرم هدنة مع ملك بيت المقدس لمدة سنة كاملة تعهد له فيها بدفع ثمانية آلاف دينار صورية (٦) ، وهو نفس المبلغ الذي كان يدفعه صاحب دمشق السابق مجير الدين أبق . وقد هدف نور الدين من ذلك ايقاف هجمات الصليبيين على أراضيه ريثما يدبر أموره مع سلاجقة الروم في الشمال، ويتم سيطرته على بقية ممتلكات الدولة البورية (٧) .

---

(١) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ٣٠٨.
(٢) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣١٠.
(٣) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢. وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ١٨٨.
(٤) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢٧.
(٥) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢٧.
(٦) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٣٦.
(٧) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

أدرك الصليبيون غاية نور الدين من إبرام المعاهدة معهم، فأخذوا يتحينون الفرص لمهاجمة الأراضي التابعة له، فنهض نور الدين لتأديبهم وقام بهجمة مرتدة، استطاع على أثرها فتح مدينة بانياس دون قلعتها (١) ، ثم ما لبث أن تركها بعد أن تجمّع جيوش الصليبيين فيها.

شُغل نور الدين بعد ذلك عن مهاجمة الصليبيين في عقر دارهم بمشاكل متعددة، على رأسها محاولة مجير الدين أبق إثارة الفتنة ضده في دمشق، مما اضطره الى ابعاده عن حمص مقر اقامته بعد فتح نور الدين لدمشق (٢) .

كما عانت مدينة دمشق من انتشار وباء فيها، مات فيه خلق كثير من الشيوخ والشباب والصبيان (٣) ، كما ضربت الزلازل العديد من مدن بلاد الشام فأدت الى دمارها وخرابها ، فصرف نور الدين جهداً كبيراً ومالاً كثيراً في سبيل اعادتها وعمارتها (٤) . وفضلاً عن ذلك أصيب نور الدين بمرض كاد أن يقضي على حياته، حتى أن إشاعة بموته سرت بين الناس (٥). فشغلت هذه الأمور نور الدين لمدة عشر سنوات بعد فتحه لدمشق، قبل أن يتمكن من شن هجماته المتتالية على مصر ومحاولة ضمّها الى سلطانه.

---

(١) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٣٩.
(٢) ابن الأثير ـ التاريخ الباهر ـ ص ١١٨ .
(٣) ابن القلانسي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٣٠.
(٤) ابن الأثير ـ التاريخ الباهر ـ ص ١١٠ .
(٥) ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية ـ ص ١٥٣ .

٦ ـ جهود نور الدين زنكي في توحيد مصر مع الشام

منذ أن سقطت مدينة عسقلان آخر المعاقل الفاطمية في بلاد الشام بأيدي الصليبيين، أخذت الأزمات والمصاعب الخارجية والداخلية تتفاقم في الدولة الفاطمية، حيث أخذ الطامعون من حولها يسعون جاهدين الى ضم أملاكها الواسعه الى أراضيهم ، في حين ازداد الوضع الداخلي سوءاً منذ أن تولى الخليفة العاضد الحكم سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م (١) وكان لا يزال صغيراً في السن ، فأخذ وزراء الدولة يتنافسون على السيطرة في شؤون الحكم والخلافة ، فتنافس «العادل بن طلائع بن رزيك» و «شاور» على ذلك وانتهى الأمر بمقتل العادل ونجاح شاور وتسلمه للوزارة سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م (٢) ، وما لبث أن دب الخلاف والتنافس بين شاور وضرغام صاحب الباب ، وأدى هذا التنافس الى سيطرة الحاجب ضرغام على الوزارة وأبعد عنها شاور ، مما دفع شاور الى السير الى دمشق للاستنجاد بنور الدين لإعادته للوزارة في مصر (٣) .

لم يكن التنافس بين الوزراء الفاطميين ، واستنجاد أحدهم بنور الدين هو السبب الوحيد الذي دعا نور الدين للتوجه الى مصر ، وانما كان العرض متفقاً مع طموحاته في مصر، ويخدم أهدافه في توحيد الجبهة الإسلامية ضد الخطر الصليبي الذي ما فتىء يهدد أمن مصر ، محاولاً الاستيلاء عليها وتحصيل جزية سنوية من أهلها (٤) .

وصادف في تلك الاثناء أن اتخذ اموري الأول ملك بيت المقدس مسألة توقف الفاطميين عن دفع الجزية المقررة عليهم (٥) ، ذريعة لغزو مصر مستغلاً ظروفها القلقة .

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٧٠.

(٢) د. البيطار ـ المرجع السابق ـ ص ٧٠.

(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ . وانظر ابن شداد ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ ص ٤٣ .

(٤) See: Stevenson, The Crusaders in the East, P 286.

(٥) عندما حاول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس احتلال مصر سنة ١١٦٠م وهددها ، دفع له الخليفة الفاطمي أتاوة قدرها ٦٠ ألف دينار.

وفضلاً عن ذلك كان نور الدين مؤمناً بضرورة تحرير الوطن العربي الكبير من الأجانب والغزاة ، وبما أن الخلافة الفاطمية كانت مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي ، حيث جعلت ولاء المسلمين في العالم العربي مقسماً وموزعاً ما بين الخليفتين، خليفة في بغداد وآخر في القاهرة ، لذا انعقدت همّة نور الدين على فتح مصر وضمّها الى سلطانه لتوحيد العالم العربي الإسلامي تحت رآية إسلامية واحدة .

وقد تمكن نور الدين من ضم مصر الى سلطانه اثر ثلاث حملات أرسلها الى مصر ليحقق من خلالها الهدف العظيم.

أ ـ الحملة الأولى على مصر

أثر انتصار ضرغام صاحب الباب على شاور وتسلمه الوزارة في مصر، التجأ شاور الى نور الدين زنكي في الشام طالباً العون منه كما أسلفنا سابقاً ، فكانت الحملة الأولى على مصر سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م (١) بقيادة أسد الدين شيركوه ، وقد رافقه كل من شاور وابن أخيه صلاح الدين الذي كان شاباً في السابعة والعشرين من عمره (٢) . وقد أرسلها نور الدين بعد أن تعهد له شاور بمنحه ثلث ايرادات مصر بعد اقطاعات العسكر ، وأن يتصرف بأمر نور الدين ويسمح لجيش شيركوه بالاقامة في مصر (٣) .

لما خرجت الحملة النورية من الشام، سمع بقدومها الوزير الفاطمي ضرغام، ولما رأى أنه لن يستطيع مقاومة جيش نور الدين بمفرده، أرسل على الفور يطلب العون من أموري ملك بيت المقدس مقابل جعل مصر تابعة له (٤) .

إلا أن مهارة شيركوه وسرعته في قطع الصحراء على الرغم من تقدم سنه ، جعله يسبق الصليبيين في الوصول الى الدلتا المصرية ، وهناك التقى بجيش ضرغام

---

(١) د. سعيد عاشور ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ـ ص ١١.
(٢) د. سعيد عاشور ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ـ ص ١٢.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٢٩٨.
(٤) د. سعيد عاشور ـ الحركه الصليبية ـ ج٢، ص ٦٨٣.

وانتصر عليه ، ونجح في الوصول الى القاهرة في رجب سنة ٥٥٩هـ / أيار ١١٦٤م (١) . في حين لم يتمكن الصليبيون من نجدة ضرغام بمصر بسبب إغارة نور الدين على ممتلكاتهم في بلاد الشام (٢) ، وتولى شاور الوزارة الفاطمية وقُتل ضرغام أثناء محاولته الفرار (٣) .

لم يكد يتولى شاور الوزارة حتى تخلى عن الوعود والعهود التي قطعها على نفسه لنور الدين محمود، وتنكر لشيركوه وطلب منه الخروج من مصر (٤)، فكان رد شيركوه بالتقدم نحو مدينة «بلبيس» المصرية واحتلالها (٥) .

لم يجد شاور بداً من الاستنجاد بالصليبيين لمساعدته في اخراج جيش نور الدين من مصر (٦) ، وذلك مقابل منحهم مبالغ كبيرة من المال.

حينما وصل أموري الاول ملك بيت المقدس على رأس جيش كبير الى الدلتا المصرية، انضمت اليه العساكر الفاطمية بقيادة شاور، وتقدما نحو بلبيس لمحاصرة شيركوه، وعلى الرغم من تلقي شيركوه للمساعدات من عرب كنانة في الشرقية (٧) مما قوّى من مركزه في بلبيس، إلا أنه حُوصر بها لمدة ثلاثة أشهر (٨) .

صعّد نور الدين من هجماته الشديدة على الصليبيين في بلاد الشام كوسيلة لتخفيف الضغط عن شيركوه في مصر، وتمكن من فتح حصن حارم ومدينة بانياس وأعادهما إلى أيدي المسلمين (٩) .

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٢٩٨ .
(٢) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج١، ص ١٠٣ .
(٣) ابن الأثير ـ المرجع السابق ـ ج ١١ ، ص ٢٩٩ .
(٤) أحمد بن ابراهيم الحنبلي ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ـ ص ٢٦ ـ ٢٧ .
(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ١٣١ .
(٦) أحمد الحنبلي ـ شفاء القلوب ـ ص ٢٧ .
(٧) د. سعيد عاشور ـ مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ـ ص ١٣ .
(٨) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ١٣١ .
(٩) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج ١ ، ص ١٣٢ .

علم الملك آموري في مصر بما جرى في بلاد الشام، فأجرى اتفاقاً مع شيركوه على أن يغادر كل منهما مصر ، وتم ذلك فعلاً في ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ / تشرين الأول سنة ١١٦٤م (١) .

كانت نتيجة الحملة النورية الأولى على مصر ، أن تعرف شيركوه وابن أخيه صلاح الدين على سوء أحوال الفاطميين عن كثب ، فتطلعا الى القضاء عليهم والسيطرة على مصر ، خاصة بعد ما رأياه من ثروات مصر وغناها وضعف امكانيات الفاطميين في الدفاع عنها (٢) .

ب ـ الحملة الثانية على مصر

بعد أن عاد شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الى الشام ، أخذا يحرضان نور الدين محمود للسيطرة على مصر ، وتطلع شيركوه للقيام بحملة جديدة عليها (٣) ، حتى أن المؤرخ أبو شامة أوضح ذلك الهدف بقوله «وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها . . . . . . يتحدث به مع كل من يثق به ، وكان مما يهيجه على العودة زيادة حقده على شاور» (٤) .

لكن الظروف أجبرت نور الدين على ارسال حملته الثانية حينما أرسل له الخليفة الفاطمي العاضد يشكو إليه من استبداد وزيره شاور ، وظلمه وسفكه للدماء، ويطلب مساعدته للحد من نفوذه (٥) .

وهكذا خرجت الحملة النورية الثانية في ربيع الثاني سنة ٥٦٢هـ / كانون

---

(١) د. سعيد عاشور ـ مصر والشام ـ ص ١٣ .
(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٣٩ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٣) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ٩٠ ـ ٩٤.
(٤) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج ١، ص ١٤٣ .
(٥) ابن الجوزي ـ مرآة الزمان ـ ق ١، ج ٨، ص ٢٦٨.
(٦) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج ١، ص ١٤٢ .

الأول سنة ١١٦٦م ، يتقدمها شيركوه على رأس جيش قوامه ألفا فارس ، وكان بصحبته أيضاً صلاح الدين (١) .

يبدو أن شيركوه علم باستنجاد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ الهجوم على القاهرة مباشرة ، وإنما اختار أن يعبر النيل الى الجيزة حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل (٢) .

أسرع الملك أموري الأول ملك بيت المقدس بالتوجه الى مصر على رأس جيش كبير ، فاستقبله شاور عند بلبيس واتجها معاً جنوباً حيث عسكرا على الضفة الشرقية للنيل (٣) ، في حين كان شيركوه لا يزال معسكراً على الضفة الغربية منه.

التقى الطرفان عند منطقة «البابين» جنوب المنيا الحالية، وجرت بينهما معركة «البابين» في ٢٥ جمادى الأخرى سنة ٥٦٢هـ / آذار ١١٦٧م (٤) ، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار شيركوه نظراً لما استخدمه من خطط عسكرية ، حتى أن المؤرخ أبو شامة صرّح تعظيماً لذلك الانتصار بقوله «وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل» (٥) .

بعد هذا الانتصار تقدم شيركوه لفتح الاسكندرية، فرّحب أهلها به أكبر ترحيب معبرين عن استيائهم لتحالف شاور مع الصليبيين (٦) . سلّم شيركوه أمر ولاية الاسكندرية لصلاح الدين (٧) مع خمسمائة فارس (٨) ، وسار هو الى الصعيد واستولى عليه واستحصل على أموال كثيرة منه.

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٤٢ .

(٢) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج ١ . ص ١٤٢ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٣٢٤.

(٣) حسن ابراهيم حسن ـ الدوله الفاطمية ـ ص ١٩٢ .

(٤) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٧٦.

(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٦) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج ١ ، ص ١٤٣ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٣٢٦.

(٧) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٨) أحمد بن ابراهيم الحنبلي ـ شفاء القلوب ـ ص ٣٠.

في تلك الأثناء أعاد شاور والصليبيون تنظيم قواتهم العسكرية ، وخرجوا لحصار صلاح الدين بالاسكندرية براً وبحراً ، فتحصن صلاح الدين بقلاع الاسكندرية وأرسل يستنجد بعمه شيركوه الذي حضر ومعه المؤن والزاد (١) .

دام الحصار تسعين يوماً وقيل خمسة وسبعين يوماً (٢) ، ولما فشل شاور والصليبيون في القضاء على صلاح الدين بالاسكندرية نتيجة لمقدرته العسكرية ، وتعاون أهالي الاسكندرية معه ، وتقدم شيركوه نحو الاسكندرية لضربهم ، عندئذٍ جنحوا للمفاوضات لعقد الصلح مع شيركوه ، فقدّم الصليبيون والفاطميون لشيركوه (٥٠) ألف دينار واقطاعاً بمصر على أن يرجع هو والصليبيون كل الى بلاده (٣) .

عاد صلاح الدين الأيوبي الى الشام ، إلا أن الصليبيين لم ينسحبوا من مصر إلا بعد أن اتفقوا مع شاور بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة (حامية) ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم من وارد مصر كل سنة مائة ألف دينار (٤) ، وبذلك حقق الصليبيون كسباً كبيرا بإيجاد موطيء قدم لهم في مصر.

على الرغم من انسحاب صلاح الدين وبعده الملك أموري من مصر ، إلا أن كلاً منهما خلّف له أثراً فيها ، فقد كسب صلاح الدين شعبية أهالي الاسكندرية ومحبتهم، في حين ترك الملك أموري حامية عسكرية في القاهرة، التي أخذت تتحكم وتظلم الشعب. حيث يقول ابن الأثير «تمكن الفرنج من البلاد المصرية ..... وحكموا على المسلمين حكماً جائراً..... وأرسلوا الى ملك الفرنج بالشام..... يستدعونه ليحكمها، وأعلموه خلوها من ممانع» (٥) .

---

(١) ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية ـ ص ١٧١ .
(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٤٣.
(٣) أحمد بن ابراهيم الحنبلي ـ شفاء القلوب ـ ص ٣٠.
(٤) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٧٧.
(٥) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٣٥.

جـ ـ الحملة الثالثه على مصر :

بعد الحملة الثانية على مصر أدرك أموري الأول ملك بيت المقدس ضعف الفاطمين، وطمع بما في مصر من ثروات، إضافة الى حث الصليبيين له على فتحها قبل أن يحتلها نور الدين (١) . ونتيجة لكل ذلك تقدم الملك أموري بجيشه الى مصر في منتصف محرم سنة ٥٦٤هـ/ تشرين الأول سنة ١١٦٨م (٢) ، فلما وصل بجيشه الى مدينة بلبيس المصرية لم يتمكن من دخولها إلا باستخدام العنف ، مما ترك أسوأ الأثر في نفوس الناس (٣) .

لما ادرك شاور قصد الصليبيين باحتلال القاهرة بعد احتلال بلبيس ، أمر باحراق الفسطاط خشية احتلالها وأدخل أهاليها الى القاهرة (٤) ، حيث فرّق شاور على المدينه عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار وأحرقها في التاسع من صفر قبل نزول الصليبيين عليها بيوم واحد (٥) .

ولما وصل الملك أموري مدينة الفسطاط هاله منظرها المخيف، فتقدم صوب القاهرة بعسكره ونزل على بعد فرسخين منها ، فضاق الأمر على شاور وقرر استخدام الحيلة في ارجاعهم عن القاهرة، وشرع بمراسلتهم، وذكرهم بما كان بينهم من مودّه، وطلب منهم عقد صلح يضمن مصالح الطرفين.

وافق الصليبيون على عرض شاور بالعودة عن مصر مقابل ألف ألف دينار مصرية، على أن يعجل البعض ويؤخر البعض، وبعد أن عجّل لهم شاور بمبلغ مائة ألف دينار وسألهم الرحيل كي يتمكن من جمع باقي الأموال (٦) ، فإن الملك أموري لم يخرج من مصر بل تقدم نحو القاهرة لاحتلالها، مما دفع بالخليفة الفاطمي العاضد

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ و ص ١٥٩.

(٢) ابن واصل ـ المرجع السابق ـ ج ١، ص ١٥٩. وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٥٤.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٣٦. وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٥٤.

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٥٤.

(٥) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ١٥٨.

(٦) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٥٤، وانظر ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج ٦، ص ١٤٨.

الى الاستغاثة بنور الدين وطلب العون منه لدفع خطر الصليبيين عن مصر ، وقد أرسل في كتاب الاستغاثة بعضاً من شعور نسائه وقال فيه «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن» (١) .

لبّى نور الدين النداء ، لأنه كان يترقب الفرصة منذ أيام الحملة الأولى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٠م لضم مصر الى الشام ، وخصوصاً وأن الدعوة جاءته من قِبل الخليفة العاضد ، الذي طلب بكتاب الاستغاثة «أن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً بها (أي مصر) عندهم والتزم له باقطاعات زائدة على الثلث» (٢) .

خرجت الحملة النورية الثالثة الى مصر بقيادة شيركوه في ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ/ كانون الأول سنة ١١٦٨م (٣) ، وقد جهزها نور الدين بستة آلاف فارس، وأضاف الى شيركوه جماعة من الأمراء والمماليك ، منهم «عز الدين جرديك» و «صلاح الدين الأيوبي» الذي ذهب على كره منه (٤) ، حيث أن الحصار الذي فُرض عليه في الاسكندرية خلال الحملة الثانية ، ولّد في نفسه صدمة عبّر عنها بإمتناعه عن الذهاب في الحملة الثالثة بقوله «والله لو أُعطيت مُلكُ مصر ، ما سرت إليه فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا أنساه» (٥) .

ولما علم الصليبيون بقدوم الجيش النوري، رحلوا عن مصر خائبين دون أن يحققوا شيئاً من أهدافهم، ودون الحصول على الأموال التي وعدهم بها شاور ، وتم ذلك في ربيع الثاني سنة ٥٦٤هـ / كانون الثاني سنة ١١٦٩م (٦) . وهكذا بذلك الرحيل انفتح الطريق أمام شيركوه ليتقدم ، ويدخل القاهرة بأمان في ١٧ جمادى الأخرى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م (٧) . ولما دخل شيركوه المدينة، استدعاه الخليفة

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧. وانظر أبو الفداء ـ المختصر في اخبار البشر ـ ج ٥، ص ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢، ص ٢٥٥.

(٣) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٨٠.

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٣١ ـ ٣٢. وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٣٨.

(٥) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٣٨.

(٦) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ١٦١.

(٧) ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهره ـ ج ٥، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

العاضد إليه ، وأخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم، فعلت منزلته، وخافه شاور على نفسه ، فأخذ يدبر مؤامرة لقتل شيركوه وأنصاره أثناء وليمة يدعوهم إليها . فلم تخُف مؤامرات شاور على شيركوه وعلى غيره من الأمراء في مصر، فاجتمعوا للتشاور وقرر الجميع قتله وانقاذ المسلمين من شرّه ، وتم قتله في ربيع الثاني سنة ٥٦٤هـ / كانون الثاني ١١٦٩م (١) .

وبمقتل شاور بدأ فصل جديد في تاريخ مصر ، حيث اتخذ العاضد شيركوه وزيراً له ، ولقّبه بالملك المنصور (٢) أمير الجيوش ، وقلده أمور الدولة وجاء في أمر تعيينه «وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته . . . . . وكفالة قضاة المسلمين» (٣) .

إلا أن شيركوه لم يمكث في الوزارة الفاطمية سوى شهرين حيث توفي يوم السبت ٢٢ جمادى الاخرى سنة ٥٦٤هـ/ ٢٣ آذار ١١٦٩م ، فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي (٤) .

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٨١.
(٢) ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية ـ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .
(٣) مجموعة الوثائق الفاطمية، جمعها وحققها جمال الدين الشيال، ص ١٧٢ .
(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٤٠. وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٦٠.

الفصل الثالث

نشأة صلاح الدين الأيوبي



صلاح الدين الأيوبي

صلاح الدين الأيوبي

١ ـ أصله ونشأته :

هو يوسف بن أيوب بن مروان بن شاذى من بلدة دوين (١) ، في آخر أعمال أذربيجان (٢) .

ولقد اختلف المؤرخون في أصل الأسرة الأيوبية ، فمن قائل بأنها من الأكراد الروادية (٣) كابن الأثير وأبي شامة وغيرهم (٤) ، ومنهم من يرى أن أصلهم يعود الى بلدة صغيرة في العجم (٥) ، وهي منطقة فارسية ، هذا وقد جعل البعض أصلهم من العرب المهاجرين من الجزيرة العربية ونسبوهم الى بني أمية (٦) . ويبدو أن هذا النسب أورده من أراد التقرب منهم حين أضحوا ملوكاً وسلاطين.

والأرجح أن نسبهم يعود إلى الأكراد ، وأنه لم يعرف بالضبط أحد بعد «شاذى»، (٧) ومما يؤيد ذلك النسب ما ذكره ابن خلكان وغيره من أنهم تتبعوا نسب صلاح الدين فلم يجدوا أحدا ذكر بعد شاذى أباً آخر (٨) .

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٤١.
(٢) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج ٦، ص ١٤٠ .
(٣) الروادية: وهي بطن من الأكراد الهذبانية ، انتشرت حول منطقة جنزة الواقعة بين شروان وأذربيجان، انظر ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج ٣، ص ١٥١ .
(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٤١. وانظر ابن اياس ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ج ١، ص ٦٩ .
(٥) ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة ـ ج ٦، ص ٤ .
(٦) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢١٠. وانظر ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهره ـ ج ٦، ص ٣.
(٧) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٤١ . وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢، ص ٢١٣.
(٨) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج ٦، ص ١٤٠ .

ومهما كان أصل الأيوبيين ، فالمهم هو أن أسرتهم دخلت كنف الحياة الإسلامية في الدول العربية كبغداد وتكريت وبعلبك ودمشق ، وتثقفت بالثقافة العربية الإسلامية ، في وقت كان في فيه الدين الإسلامي هو شعار الحياة العامة ، ويجمع بين القوميات المختلفة كقوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾، وكقول رسوله محمد (ﷺ) «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» .

هذا وقد روى المؤرخون أن جد الأسرة «شاذى» كان له ولدان هما «نجم الدين ايوب» و «أسد الدين شيركوه» وكان صديقاً لرجل إغريقي اسمه «مجاهد الدين بهروز» كان عبداً في بلدة دوين ثم ارتفعت منزلته عند الاتراك حتى صار معلماً ومربياً لأولاد السلاجقة (١) .

غادر «بهروز» بلدة دوين الى بغداد سراً وتقدم الى السلطان مسعود بن ملكشاه، فعينه مستحفظاً لبغداد، فلما تولى منصبه بعث في طلب صديقه شاذى الذي غادر وطنه مصطحباً معه ولديه وجميع أسرته الى بغداد (٢) .

بعد مرور فترة من الزمن ، أقطع السلطان مسعود بن ملكشاه بهروز ولاية تكريت بصفة التمليك (٣) ، فأناب بهروز صديقه شاذى في أمور المقاطعة ، لما كان بينهما من ود وصداقة ، وغدا شاذي حاكماً لقلعة تكريت (٤) . وحينما توفي شاذي ودفن في تكريت، جعل بهروز نجم الدين مستحفظاً لقلعة تكريت لأنه الأكبر سناً والأرجح عقلاً (٥) ، وبذلك أصبح نجم الدين حاكماً لقلعة تكريت قبيل سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م وقد أحسن التصرف بها (٦) .

بعد حوالي سنتين من تولي نجم الدين لقلعة تكريت اضطربت أموره، وذلك لأن أتابك الموصل «عماد الدين زنكي» عاضد وساند السلطان مسعود السلجوقي

---

(١) د. محمد سامي الدهان ـ الناصر صلاح الدين الأيوبي ـ ص ٣٣.

(٢) د. الدهان ـ المرجع السابق ـ ص ٣٣.

(٣) د. الدهان ـ المرجع السابق ـ ص ٣٣.

(٤) تكريت : مدينة مشهوره تقع بين بغداد والموصل وهي أقرب الى بغداد ، وقلعتها تقع في طرفها الأعلى وهي قديمة وحصينة ومبنية من الأحجار الكبيرة .

(٥) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٤١ .

(٦) دريد عبد القادر نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ـ ص ٦٦ .

بجيش كبير قدم به الى بغداد ضد الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م (١)، وذلك لنيل السلطنة بالقوة ، ولكنه هزم ، وفرّ عائداً الى بلاده ماراً بتكريت، وفيها ساعده نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه في عبور نهر دجلة، وقدما له المساعدات التي أغضبت عليهما بهروز الذي اعتبر مساعدتهما لعماد الدين زنكي عصياناً على الخلافة في بغداد.

خاف نجم الدين وأخوه شيركوه ، فخرجا من تكريت موليين شطر الموصل (٢) ، حيث كان يقيم عماد الدين زنكي ، وفي ليلة رحيل نجم الدين أيوب عن تكريت ، ولد له يوسف صلاح الدين (٣) ، وقد حمله معه الى الموصل وكان ذلك سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م.

وقد ذكر ابن شداد هذه الولادة فقال «كان مولده رحمه الله على ما بلغنا من ألسنة الثقات ، الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم، في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وذلك بقلعة تكريت وكان والده أيوب بن شاذى رحمه الله تعالى والياً بها ، وكان كريماً أريحياً حليماً حسن الاخلاق. مولده بيدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت الى الموصل المحروسة وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع» (٤) .

وحينما فتح عماد الدين زنكي بعلبك سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م وكان عمر صلاح الدين سنتين، ولّى عليها نجم الدين أيوب دزداراً أي صاحب القلعة ، كما قلّد شيركوه قيادة الجيش (٥) .

لبث صلاح الدين مع أسرته في بعلبك حتى بلغ السابعة من عمره سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، حيث قتل في ذلك العام عماد الدين زنكي ، وعلى أثر ذلك

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢١٠ . وانظر د. سعيد عاشور ـ الناصر صلاح الدين الأيوبي ـ ص ٦٥ ـ ٦٨.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج١١ ، ص ٣٤١ . وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين ـ ص ٦٧ عن ابن الفرات ـ مجلد٤ ـ ج ١، ص ٥٥.

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٦.

(٥) ابن شداد ـ المرجع السابق ـ ص ٦.

أرسل حاكم دمشق مجير الدين أبق الى والد الفتى نجم الدين يطلب منه تسليم بعلبك مقابل اقطاعات كبيرة في دمشق (١) . فأجابه نجم الدين الى طلبه ، وانتقل مع أسرته الى دمشق تاركاً بعلبك، وتسلم الاقطاع الذي عينّ له في ذات العام.

أما أسد الدين شيركوه فقد اتصل بخدمة صاحب حلب نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي، وأصبح من أخص أصحابه ، ومقدما على سائر أمرائه، لما عرف عن شهامته وشجاعته ، ولم يزل حاله يكبر عنده إلى أن أقطعه مدينتين حمص والرحبة وأسند إليه قيادة الجند (٢) .

وهكذا أصبح كل من والد صلاح الدين «نجم الدين أيوب» قائداً معززاً مكرماً على الأمراء بدمشق ، كما أصبح كذلك عمه شيركوه قائداً على الأمراء بحلب.

ولما توفي معين الدين أنر القيم بتدبير مملكة دمشق سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، خلفه نجم الدين أيوب وأضحى صاحب الكلمة في دمشق، وذلك ان حاكمها مجير الدين أبق كان ضعيفاً قليل النفوذ، يستنجد حينا بالصليبيين وحينا آخر يطمعهم في الاستيلاء عليها ، فخاف نور الدين صاحب حلب ذلك ، وأراد أن يملك دمشق لئلا تقف عثرة في طريقه لقتال الصليبيين.

كان لشيركوه دور بارز في ضم مدينة دمشق لنور الدين، حيث كاتب أخاه نجم الدين طالباً منه المساعدة، فوافق (٣) ، وانتهى الأمر كما أسلفنا سابقاً بدخول جيوش نور الدين الى دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٣م (٤) . وبدخول دمشق تحت حكم الزنكيين ، أصبح كل من نجم الدين وشيركوه من كبار الأمراء في جيش نور الدين (٥) ، كما أضحى نجم الدين أيوب من أخص جلساء نور الدين زنكي ، ونال عنده مالم ينله غيره ، فقد روى ابن واصل عن ذلك فقال: «وكان نور الدين إذا

---

(١) أحمد الحنبلي ـ شفاء القلوب ـ ص ٢٣ .

(٢) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٨٤، نقلاً عن أبو المحاسن ـ ج ٦، ص ٥ .

(٣) د. أمينة البيطار ـ المرجع السابق ـ ص ٨٤. نقلا عن أبو المحاسن ج ٦، ص ٥ .

(٤) ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ـ ص ٣٢٧.

(٥) د. أمينة البيطار ـ المرجع السابق ـ ص ٨٤، نقلا عن أبو المحاسن ـ ج ٦، ص٥ ـ ٦.

جلس لا يجلس أحد إلا بإذن الأمير نجم الدين أيوب ابن شاذى رحمه الله ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية وغيرهما ، فانهم كانوا يقفون بين يديه إلى أن يتقدم اليهم بالقعود ، .... وكان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو» (١) .

ونتيجة لشجاعة شيركوه واقدامه في الحرب، جعله نور الدين قائداً لحملاته الثلاث التي أرسلها إلى مصر، والتي انتهت باعتلاء شيركوه للوزارة الفاطمية، وكما أوردنا سابقاً فقد توفي شيركوه بعد شهرين من توليه الوزارة ، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين.

وأما عن صلاح الدين الأيوبي فيمكن القول بأنه نشأ وتربى في طفولته بين أحضان أسرته ، وأخذ عن أبيه نجم الدين أيوب براعته في السياسة ، وشجاعته في الحروب ، فنشأ متشبعاً بالدهاء السياسي والروح الحربية ، كما تعلّم علوم عصره ، فحفظ القرآن ودروس الفقه والحديث (٢) . وعندما شبّ وكبر درس على أيدي كبار العلماء ومنهم الشيخ قطب الدين النيسابوري (٣) ، الذي قال عنه المقريزي بأنه جمع لصلاح الدين عقيدة تحوي جميع ما يحتاج إليه في أمور دينه ، وأنه من شدة حرصه عليها كان يعلمها لصغار أولاده (٤) . كما قدمه أسد الدين شيركوه بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعه اقطاعاً حسناً (٥) .

وهكذا تربى صلاح الدين على أيدي كبار أساتذة منطقة الشام والجزيره في القرن السادس الهجري ، فهو إضافة الى تردده على دور العلم والشيوخ ، تلقى الدروس العملية على أيدي والده نجم الدين وعمه شيركوه والسلطان نور الدين محمود الذين تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز .

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج١، ص ٢٨٥
(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٦.
(٣) النيسابوري: هو أبو المعالي مسعود بن محمد الفقيه الشافعي ـ قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ بعد ان كان قد درس القرآن الكريم في نيسابور ، وكان عالما صالحا توفي سنة ٥٧٨هـ بدمشق. للمزيد انظر ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج ٨، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٤) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١ ، ص ٤٢ ـ ٤٣.
(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ٨٤.

٢ ـ صلاح الدين في الوزارة الفاطمية

بعد وفاة أسد الدين شيركوه في مصر، عَلِم الخليفة الفاطمي العاضد بإجماع الأمراء النوريين (١) على صلاح الدين الأيوبي ليخلف عمه في الوزارة ، وكان صلاح الدين قد كسب محبة العاضد، ووقع منه موقعاً حسناً كما يقول أبو شامة «بموقع أعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدامه على شاور في موكبه ، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف» (٢) . فبعث إليه الخليفة العاضد بمنشور الوزارة الصادر باسمه ، وبرفقته خلعة الوزارة (٣) التي كانت ثمينة للغاية ، ولقبه بالملك الناصر .

عند تولي صلاح الدين الوزارة الفاطمية كان في سن الثانية والثلاثين من عمره، وقد قام بتنفيذ أعمال عديدة ، كانت أولى تلك الأعمال ، العمل على تثبيت مركزه في مصر، كما أرسل إلى أبيه واخوانه يستدعيهم إلى مصر ، لتنصيبهم مكان الأمراء المشكوك في ولائهم للدولة ، وقد استجاب نور الدين لطلب صلاح الدين، فجهز والده وأخوته وسير معهم عسكراً لحمايتهم (٤). كذلك قام صلاح الدين بتفقد القوات العسكرية الموجودة في مصر ، وعمل على التخلص من الأمراء المصريين

---

(١) الأمراء النوريين: هم الأمراء الشاميون الذين قدموا الى مصر، وقد سموا بالنوريين نسبة الى نور الدين محمود زنكي.

(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ـ ج ١، ص ١٧٣ .

(٣) يقول أبو شامة «وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء نيسي بطراز ذهب، وثوب دبيقي بطراز ذهب، وجبّة تحتها سقلاطون بطراز ذهب، وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة الاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق وتخت وسرفسار ذهب بجوهر . . ومع الخلعة عدّة بقج وعدة من الخيل وأشياء أخر، ومنشور الوزارة ملفوف بثوب أطلس أبيض ، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الأخره سنة أربع وستين وخمسمائة» . تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٧٣ ، وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢، ص ٢٢٧.

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

والعربان والأرمن والسودانيين، لأنه اعتقد أن بقاءهم في القوات العسكرية، يشكل خطراً على سياسته الهادفة الى تغيير نظام الحكم القائم وإقامة الدولة الجديدة (١) . في حين انضمت الفرقة الأسدية التي أنشأها عمه أسد الدين شيركوه بمصر ، وكذلك الأمراء الأكراد الذين كانوا بمصر ، انضوا جميعاً الى صلاح الدين ، ولم تنقض سنة على توليه الوزارة إلا وكان قد شكل فرقة خاصة من الحرس تدعى الصلاحية ، كما استعان صالح الدين بالماليك الأراك (٢) .

بعد أن تمكن صلاح الدين من فرض سيطرته التامة على القوات والجيش ، توجه الى عامة الشعب المصري ، ووجد في حل مشاكلهم الإقتصادية خير وسيلة لكسبهم الى جانبه ، فأبطل الضرائب والمكوس التي كانت تجبى منهم سنوياً وتقدر بحوالي مائتي ألف دينار (٣). ولكن نتيجة لسياسته الاصلاحية هذه، واجهته مشاكل ومؤامرات عديدة من المتضررين أو الذين خشوا على أنفسهم من العزل من مناصبهم، وكان من هؤلاء مؤتمن الخلافة الفاطمية «جوهر بن عبد الله» زعيم الجند السودانيين وقائدهم، الذي دبر مؤامرة ضد صلاح الدين بالاشتراك مع كبار رجال القصر الفاطمي ، ومعتمداً على الجند السودانيين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى في الجيش الفاطمي ، إضافة الى قدرته على الإستعانة بالصليبيين لتحقيق هدفه (٤) . وكانت المؤامرة تقضي بهجوم الصليبيين على مصر ، وعند خروج صلاح الدين لصدهم ، يكون الفاطميون في مصر قد ثاروا على صلاح الدين في الداخل وقبضوا على أعوانه واستلموا الحكم منه (٥) .

حاك مؤتمن الخلافة «جوهر» خيوط المؤامرة ، وأرسل خطاباً إلى أموري ملك بيت المقدس طالباً منه المساعدة بالقدوم إلى مصر ، إلا أن الخطاب وقع في يد رجال

---

(١) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ـ ص ٩٧ .
(٢) دريد نوري ـ المرجع السابق ـ ص ٩٧ .
(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ١٨٤ .
(٤) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٥) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ٢، ص ٤ .

صلاح الدين الذين أطلعوه عليه (١) ، وتم القبض على المشتركين في المؤامرة وأُعدم قائدهم جوهر بأمر من صلاح الدين (٢) . كما أتبع صلاح الدين ذلك، بابعاد جميع الخدم الخصيان من السودانيين عن قصر الخلافة الفاطمية، وجعل أمر الاشراف على القصر إلى بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض من أتباع صلاح الدين (٣) .

وهكذا تخلص صلاح الدين من عناصر الخيانة ولم يبق أمامه إلا كبار الاقطاعيين ، وملاك الأراضي الذين يدفعهم الخوف على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة الى مساندة الفساد ، والحرص على عدم تغيير الأوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين منهم، وأحلَّ محلهم في أراضيهم جماعة من رجاله من أهل الشام (٤).

كان صلاح الدين في ذلك الوقت يقوم بأعماله بوصفه نائباً عن نور الدين محمود في مصر، لا على أنه وزير للخليفة الفاطمي ، وبذلك احتفظ صلاح الدين بعطف ورعاية نور الدين له ومخاطبته له في رسائله بلقب أمير (٥) .

لكن يبدو أن الصليبيين في بلاد الشام ، شعروا بالقلق والرعب من استقرار الأمور في مصر على يد صلاح الدين ، وقد أصبحت تابعة لنور الدين في الشام ، فأدركوا أن القوات النورية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي، وإضافة إلى ذلك فإن الدولة النورية أفقدت الصليبيين السيادة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط، لتملكها الاسكندرية ودمياط وغيرهما من الموانيء.

لذلك وفي الوقت الذي كانت تحاك فيه المؤامرات الداخلية ضد صلاح الدين في مصر ، أخذ الصليبيون في بلاد الشام يخططون لمؤامرة أخرى ، تقضي باحتلال دمياط والتوجه منها الى القاهرة والاستيلاء عليها ، وذلك بعد أن أخذوا موافقة

---

(١) ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية ـ ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ١٨٧ . وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ـ ج ٣، ص ٣١٢. وانظر ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية ـ ص ١٨٤ .

(٤) د. سعيد عاشور ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ـ ص٢٠.

(٥) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٨٧.

الدولة البيـزنطية وتلقوا منها مساعدات حربية كبيرة لتحقيق ذلك.

تم الاتفـاق بين البيـزنطين والصليبـيين على غـزو مصر براً وبحراً عن طريق دمـياط، فأقلع الأسطول البيـزنطي تجاهها ، في حين زحف الصليبـيـون في صفر ٥٦٥هـ / تشرين الأول سنـة ١١٦٩م (١) من عسقلان الى الفرما قاصدين دمياط ، ومعهـم المنجنيقات وآلات الحـرب والحصـار (٢) ، فتمكـن الصليبيون مـن نصـب معـسكرهم أمـام دمياط، لكن الأسطول البيزنطي لم يتمكن من دخول الميناء بسبب المآصر (٣) .

شعر صلاح الدين بحرج موقفه، حيث كان يخشى المؤامرات الداخلية ضده، كما أنه فـوجيء بإلقـاء الجيش الصليبي والبيـزنطي الحصار على دمياط براً وبحراً ، وهي المدينة التي لم يهتم بتحـصـينهـا جيداً ، كما فعل ببلبيس والقاهرة والاسكندرية وغيرهم من المراكـز الأمـامـيـة ، ظنـاً منه أنهم سيقتفـون أثر الحمـلات السـابقة في هجومهم على مصر ، فضلاً عن ذلك فإنه لم يكن يثق بالجيش المصري (٤) ، ولذلك كلـه أرسـل صـلاح الدين الى نور الدين في الشـام طالباً منه النجـدة (٥) ، فوصلتـه نجـدات متتالية ، فعمل صلاح الدين على إرسال قوة الى دمياط بقيادة ابن أخيه تقي الدين عـمـر وخـاله شـهـاب الدين، وتمكنت تلك القـوة من دخـول المدينة ومساندة أهلهـا الذين اسـتـغلوا جريان النيل من الجنوب الى الشمال ، وأطلقوا على سطح الماء أواني فـخـارية مملئة بمـواد مـشتعلة أصابت الاسطول البيزنطي بضرر بالغ مما اضطره للابتعاد عن لسان النيل والمدينة (٦) .

هذا وقـد انتشرت شـائعـة بين الصلـيبيين مفادها أن البيزنطين ينوون الاستئثار بدمـيـاط لأنفـسـهـم عنـد سقـوطها بأيديـهـم ، الأمـر الذي أضعـف ثقـة الصليبيين

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٨٩.

(٢) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ١٨٠ .

(٣) وهي السـلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الاعداء.

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضـتين ـ ج ١، ص ١٨٨ . وانظر ابن قـاضي شهبة ـ الكواكب الدرية ـ ص ١٨٦ .

(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ١٨٨ .

(٦) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ١٨٣ .

بالبيزنطيين وأدخل الشك في نفوس الحليفين مما أضعف قوتهم.

لما وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى ، في الوقت الذي كانت قواتهم تتعرض فيه لهجمات من الخلف من قبل قوات صلاح الدين ، وكذلك مراكزهم في الشام التي كانت تتعرض لهجمات متتالية من قبل قوات نور الدين (١) ، لذلك كله قرر الصليبيون رفع الحصار عن دمياط والعودة الى عسقلان خائبين ، فوجدوا المناطق التي يحتلونها خرابا ، وأهلهم بين قتيل وأسير ، وكذلك كان الحال بالنسبة للأسطول البيزنطي الذي انسحب من أمام دمياط دون تحقيق هدفه بالاستيلاء عليها.

كانت من أهم نتائج هذه الحملة أنها ثبتت أقدام صلاح الدين في مصر ، وأظهرته أمام المصريين انه المنقذ الوحيد لهم من الأعداء ، كما أن الخليفة العاضد أرسل الى نور الدين زنكي عقب انسحاب الصليبيين من دمياط ، يرجوه سحب جنده من القاهره بحجة أنهم بثوا الرعب في قلوب أهلها ، لكن نور الدين أرسل إليه معتذرا عن عدم إجابته الى طلبه ، موضحاً له أن بقاء أولئك الجند أمر ضروري لحماية مصر من خطر الصليبيين (٢). هذا وقد كان لانتصار صلاح الدين على الصليبيين والبيزنطيين في دمياط الأثر البالغ في التفاف المصريين حوله، وعدم قيامهم بثورات ضد حكمه ، بل أخذوا يساندونه في حربه ضد الصليبيين ، ويسيرون معه لمحاصرة قلاعهم في بلاد الشام بعد أن لاحقهم هناك.

ففي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م هاجم صلاح الدين غزة وتقدم لحصار الداروم، فاستنجد صاحبه بملك بيت المقدس ، مما اضطر صلاح الدين الى الإنسحاب من الداروم، بعد خروج الملك أموري على رأس قواته لمواجهته (٣) . وفي نفس السنة هاجم صلاح الدين قلعة إيلة (العقبة) براً وبحراً، حتى تمكن من فتحها في ٢٠ ربيع الآخر من تلك السنة ، كما شدد نور الدين من هجماته على الصليبيين، حيث أرسل

---

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٤٣ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٥٢.

(٢) د. سعيد عاشور ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ـ ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٣٦٥ . وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج١، ص ١٩٩.

قـوة لمهـاجـة إمارة أنطاكية في ذي الحجـة سنـة ٥٦٦هـ / أيلول من سنـة ١١٧١م ، وفـرقة أخرى احتلت قلعتي عرقة وصافيتا، كما هاجم بنفسه إمارة طرابلس (١) .

شـعـر الصليبيون بتضييق المسلمين عليهم الخناق من الشمال والجنوب، فحاول ملكهم أمـوري الأول الاستعانة بالبابوية والغرب الأوروبي ، إلا أن أمله في الحصول على نـجـدات سريـعـة مـن الـغـرب بـاءت بـالفـشل ، مما اضطره الى اللجـوء الى الامـبراطـوريـة البـيـزنطيـة ، فأبحـر للقـاء امبراطورها «مـانويل كـومنين» وأوضح له الوضع السيء الذي آل اليـه الصليـبـيـون، وطلب منه معونة عاجلة ، لكنه لم يحصل عليـهـا إلا مقابل اعترافه بالتبعية للامبراطور البيزنطي (٢) .

٣ ـ سقوط الخلافة الفاطمية

بعـد نجـاح صلاح الدين في الدفاع عن مصر ، وكسب محبة المصريين وميلهم اليـه، أخـذ نور الدين يلّح عليـه بضرورة العـمل على إسـقـاط الخـلافـة الفاطمية ، وكـذلك كان الخليفة العباسي المستضيء بالله يرسل لنور الدين معاتبا على تأخير اقامة الخطبـة العـبـاسيه بمصر ، وفي سبيل الإسراع باسقاط الخلافة الفاطمية ، أرسل نور الدين لصـلاح الدين والده نجم الدين أيوب ليحثه على ذلك (٣) .

سـارع صـلاح الدين الى التـمهيد لذلك ، بالقيام ببعض الأعمال منها التقرب الى الأهالي برفع جميـع المكـوس بديار مصر وأبطلهـا (٤) ، كما عـزل قضـاة مصر من الشيعة واستناب على سائر البلاد قضاة شافعية ، كما عين العالم الشافعي صدر الدين ابن عبد الملك بن درباس قاضيا للقضاة الشافعيـة ووزيراً للديار المصريـة (٥) . وبنى دار العـدل مدرسـة للشافعيـة ، وأزال أصـول المذهب الشيعي مثل الآذان «حي على

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ٩٢ .
(٢) د. أمينة البيطار ـ المرجع السابق ـ ص ٩٣ .
(٣) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ٢٠٠ .
(٤) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ـ ج ٣، ص ٣١٩.
(٥) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ـ ج ٣، ص ٣٢٠.

خير العمل» كما أثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين وأنهم من نسل المجوس وإن زعموا أنهم علويون (١) . هذا وكان صلاح الدين قد أجهز على قوة الخلافة الفاطمية العسكرية، وقضى على أمراء القصر والجند السودانيين كما أسلفنا سابقاً .

وحينما وجد صلاح الدين أن أقدامه أصبحت ثابتة في مصر ، أراد تنفيذ خططه في الإجهاز على الخلافة الفاطمية دون تقديم أية ضحايا ، ومن غير إثارة المصريين عليه ، فعمل على اظهار ما يبتغيه ، بأن طلب من الأمراء الشافعيين أن يمضوا الى بيوت الأمراء الفاطميين في الليل ، ويقف كل أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر ، فإذا خرج الأمير الفاطمي للخدمة قبض عليه ، واحتاط على داره وما فيها وأخذها لنفسه (٢) .

فلما أصبح الصباح، وخرجوا على عادتهم أحاط بهم الأمراء والجند الأيوبيون من كل جانب، وقبضوا عليهم واستولوا على دورهم وذخائرهم.

ولما علم الخليفة العاضد بما جرى ، أرسل الى صلاح الدين يسأله عن السبب في ذلك ، فبعث إليه «بأن هؤلاء الأمراء كانوا عاصون لأمرك ، والمصلحة قتلهم وإقامة غيرهم ممن يمتثل أمرك» ، فأرضاه بذلك (٣) .

وقد ساعد صلاح الدين على إتمام خطته بالكامل، مرض العاضد الذي غلب الظن أنه لن يشفى منه، فجمع أصحابه إليه واستشارهم في ذلك، فاختلفوا، وكان في مصر في ذلك الوقت رجل أعجمي اسمه الخبوشاني (٤) ، أعلن استعداده لاعلان سقوط الخلافة الفاطمية ، فالقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله في أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م (٥) ، ولم يحتج أحد على ذلك. وكان العاضد قد اشتد به المرض ، فتوفي بعد ثلاثة أيام دون أن يدري بشيء مما حدث، فقد منع صلاح الدين رجال العاضد من ازعاجه أثناء مرضه،

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٠٢.
(٢) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ـ ج ٣، ص ٣٢١.
(٣) المقريزي ـ المرجع السابق ـ ج ٣، ص ٣٢١.
(٤) المقريزي ـ المرجع السابق ـ ج ٣، ص ٣٢٩.
(٥) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ٢٠١، وانظر المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ـ ج ٣، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية (١) .

كـان لسـقوط الخلافة الفاطمية صـدى بالغ الأثر في نفـوس المصريين خاصـة، والأمـة الإسـلامـية عامة، وكان حدثاً تاريخياً هاماً وخطيراً في تاريخ الأمة الإسلامية، حيـث عـادت وحـدة الخلافـة السنيـة التي يدين لها المسلمون بالولاء الديني ، وقد أقـيمت بهذه المناسبة الاحتفـلات في بغداد عاصمـة العباسيين «فزينت بغداد وغلقت الأسـواق وعملت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديداً» (٢) .

وعلى أثر ذلك أرسل الخليـفـة العباسي المستضيء بنور الله الخلع الثمينة الى كل من نور الدين محمـود وصلاح الدين الأيوبي ، كان من بينها سيفان ، أحدهما قلّد به الشـام لنور الدين ، والثـاني مـصـر لصـلاح الـدين على أن يكون صلاح الدين نائبه فيها (٣) .

هذا وقـد نصب صـلاح الدين الأعلام السود على منابر الجوامع المصرية، وقرأ من عليـهـا نسخة سجل باسقاط المكوس وبشارات أخرى ، ومن نص المنشور الذي أصـدره صـلاح الدين للشـعب المصري في ٣ صـفـر سنـة ٥٦٧هـ من على المنابر مـا يدل على ذلك :ـ

«فـانا نـحـمـد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض، وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ، ونصبنا له من ازالة النصب عن عبادة .... فالبشائر في أيامنا تترى شـفعاً ووتراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى، والمسـامحات قد ملأت المسامع والمطامع .... ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانيـة بمصر والقـاهرة اولى مـا نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا الى أن تكون لنا في الآخرة وأن نتجرد منها .... ونظهر منها مكاسبنا .... ونعيدها اليوم كأمس الذاهب ، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ، ولا قلم كاتب .... وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر،

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ١، ص ٢٠١.

(٢) ابن كـثير ـ البـداية والنهاية ـ ج ١٢ ، ص ٢٦٤. وانظر المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ٤٤.

(٣٢) ابن تغري بردى ـ النجـوم الزاهرة ـ ج ٦، ص ٦٤ .

وجميع التجار المترددين اليها ، والى ساحل المقسم الميناء ، بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ..... ويقارض ويتجر براً أو بحراً مركبا وظهرا سراً أو جهراً، لا يحل ما شده ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره ..... ولا يستوقف في طريقه ..... ولا يستباح له حرمه ..... والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة الف دينار مسامحة لا يشوبها تاويل ... من عارضها ردت أحكامه ومن ناقضها نقض ذمامه ومن أزالها زلت قدمه ومن أحالها حل دمه ..... فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمتثل ما مثل من الأمر .... » (١) .

ولكن على الرغم من قيام صلاح الدين بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه من نور الدين باسقاط الخلافة الفاطمية ، وإقامة الدعوة للخلافة العباسية في مصر ، فقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى ظهور بعض الخلافات والتوترات بين الطرفين أدت الى حدوث وحشة بينهما (٢) .

والسبب الرئيسي في ذلك الخلاف ، أنه بمرور الوقت ، أخذ نور الدين يلّح على صلاح الدين باستخدام كافة القوى المصرية من مادية وبشرية لمساندته ودعمه في حربه ضد الصليبيين في الشام ، وكذلك لإعمار ما خربته الزلازل القوية التي ضربت بلاد الشام في تلك الفترة، خاصة ما حدث منها في سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م (٣) في حين أحجم صلاح الدين عن مد سيده بأموال مصر ، والخلافة الفاطمية بعد اسقاطها، إلا من بعض الهدايا التي لا تسد ولا تغني عن الأموال التي أنفقها نور الدين من أجل فتح مصر ، والإفادة من مواردها الطبيعية والبشرية في أوقات الأزمات. وذلك بحجة أن اقليم مصر لا يضبط إلا بالمال العظيم ، ومما قاله صلاح

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٠٥ . وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢، ص ٢٦٨.

(٢) لمعرفة المزيد عن أسباب تلك الوحشة بين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، انظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٦٨ و ص ٤٠٢ . وانظر رواية ابن ابي طيء في كتاب ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية ـ ص ١٨١، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) عن الزلازل انظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٥٤.

الدين له: «أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها . وقد تصرفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها ، ولا يسمحون بأن ينتقص ارتفاعها. فالموارد مشفوعة والشدائد مكروهة » (١) .

وبذلك اتضح أن غاية صلاح الدين من ابقاء أموال مصر فيها ، من خلال ربطه لمصالح الأمراء والقادة بمصلحة حكمه في مصر (٢) ، ولأنه كان أكثر وعياً وإدراكاً للأخطار التي قد تنجم عن عداء القوات الفاطمية السابقة ، واستعدادها للانضمام للفرنجة لمحاربته في أية لحظة ضعف منه ، اعتقد بضرورة تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر الذي هو أولى وأهم مرحلياً من الانشغال بمسائل الشام.

وفي ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ/ ١٥ أيار ١١٧٤م (٣) توفي نور الدين زنكي ودفن بقلعة دمشق (٤)، وبوفاته كان صلاح الدين هو الوارث الحقيقي لسياسة نور الدين، في توحيد صفوف المسلمين في بلاد مصر والشام والحجاز وأعالي العراق وفي محاربته للصليبيين .

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢١٩.
(٢) أبو شامة ـ المرجع السابق ـ ج ١، ص ٢١٩.
(٣) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٤٧ .
(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٠٢.

الفصل الرابع

سلطنة صلاح الدين الأيوبي

(١)

صلاح الدين والثورات المضادة له

بعد أن تمكن صلاح الدين الأيوبي من إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر ، وأخذ يعمل على تثبيت مركزه فيها ، أعدت مؤامرة كبرى للقضاء عليه ، ولرد الدعوة للخلافة الفاطمية في مصر ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ / ابريل سنة ١١٧٤م (١) أي قبل وفاة نور الدين زنكي بشهر واحد ، حيث تجمعت القوى المؤيدة للخلافة الفاطمية من رجال القصر الفاطمي وأمراء جيشه وجنده السودانيين ، ومعهم كثير من قطعت أرزاقهم واخذت اقطاعاتهم ، أو ممن أصابهم ضرر من الأضرار نتيجة للقضاء على الخلافة الفاطمية ، وكان على رأسهم الشاعر عمارة اليمني وعبد الصمد الكاتب والقاضي العوريس داعي دعاة الشيعة (٢) ، واتحدوا مع جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده المعارضين له (٣) .

وفي سبيل انجاح ثورتهم ضد صلاح الدين ، اتفق رأيهم على الاتصال بمقدم الاسماعيلية في الشام ، وبالصليبيين في كل من الشام وصقلية ، وحدد دور كل منهم، بحيث يقوم الاسماعيلية في الشام باغتيال صلاح الدين، ويقوم الصليبيون في الشام وعلى رأسهم ملك بيت المقدس بغزو مصر من ناحية الشرق براً، ويقوم وليم الثاني النورماندي من صقلية بمهاجمة الاسكندرية بأساطيله، في الوقت الذي يقوم به المتآمرون باشعال نار الثورة في القاهرة والفسطاط، فيقع صلاح الدين بينهم جميعاً . كما عينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأملاك (٤) .

ولكن شاء القدر أن يفتضح أمرهم ويكتشف سرهم ، حيث أراد ملك بيت المقدس أن يعد الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل تنفيذ المؤامرة ، فأرسل من أجل

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ١١٠ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٣٩٨. وانظر المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ٥٣.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٩٩.

(٤) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٢٠١.

ذلك رسولا الى مصر ، يعمل في ظاهر الأمر على حمل تحيات الملك الى صلاح الدين ، لكن صلاح الدين كشف أمره عن طريق مراقبته من قبل بعض أقباط مصر (١) . ويقال بأنه عرف ذلك في اللحظة الأخيرة بفضل الواعظ زين الدين علي ابن نجا الذي أشركه المتآمرون معهم، فاطّلع على جميع أحوالهم، فعمل على اطلاع صلاح الدين على المكيدة كلها. ولما تأكد صلاح الدين من تفصيلاتها، قبض على المتآمرين فوراً ، وأمر بصلب زعمائهم ومنهم الشاعر عمارة اليمني في رمضان سنة ٥٦٩هـ / نيسان ١١٧٤م، في حين اختفى ابن الخليفة العاضد عن الأنظار (٢) .

صادف في تلك الأثناء ، وفاة الملك أموري ملك بيت المقدس ، فتعطل تقدم القوات الصليبية من الشام لغزو مصر ، لكن في ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ / ٢٨ حزيران ١١٧٤م تقدم الاسطول الصليبي من صقلية الى الاسكندرية لتنفيذ خطة المؤامرة ، ولم يكن قائد الاسطول الصيقلي (تانكرد كونت ليكا) يعلم بفشل المؤامرة (٣) ، لذلك استمر تدفق قطعات أسطوله الحربي الى الاسكندرية من قبيل الظهر الى وقت العصر (٤) ، وقد حملوا على المسلمين حملة قوية اضطرتهم الى التراجع نحو السور ثم حاصروهم بعد أن ضربوا خيامهم حول السور ، وكانت عُدتها ثلاثمائة خيمة (٥) .

تخوف أهالي الاسكندرية من هذه الغزوة كثيراً، وقاوموها بشدة غير أن الوالي أمر الجنود بالانسحاب الى داخل سور المدينة والقتال من الداخل (٦) ، وفي الوقت ذاته كتب الى صلاح الدين مستنجداً به (٧) .

دام حصار المدينة ثلاثة أيام ، وكان القتال فيها يتصل من الصباح حتى

---

(١) ابن قاضي شهبة ـ الكواكب الدرية ـ ص ٢٢٥ . وانظر ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٣٩٩.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٠٠ .

(٣) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين ـ ص ٢٦٢ عن كتاب Grousset, op. cit, 11. P 618 .

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٥) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٤ .

(٦) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٤ .

(٧) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤١٣ .

المساء، إلا أن المدينة صمدت صموداً رائعاً نظراً لمناعة أسوارها - إذ كان صلاح الدين قد اهتم بتحصينها قبل سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وكذلك لصلابة موقف أهاليها واستماتتهم في الدفاع عن المدينة (١) .

قدم صلاح الدين الذي كان نازلاً بعساكره في «فاقوس» مسرعاً لمساعدة أهل الاسكندرية ، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وأحرق خيامهم وأنزل بهم هزيمة نكراء ، فولّت البقية الباقية من سفنهم هاربة الى صقلية خائبة (٢) . وهكذا انتهت هذه الحملة وكذلك المؤامرة المدبّرة بالفشل الذريع .

إلا أنه قامت ثورة أخرى في وجه صلاح الدين الأيوبي من قبل «كنز الدولة» في أسوان ، وهو أحد القادة الفاطميين الذي ذهب الى منطقة أسوان أثر سقوط الخلافة الفاطمية ، وأخذ يعمل على جمع السودان والناقمين على صلاح الدين من الشيعة حوله ، ولما تمكن «كنز الدولة» من جمع عددٍ لا بأس به من الأتباع، ثار ضد صلاح الدين وقصد «قومص» وأعمالها ، فقتل كل من وجده من أهالي السّنة . ومنهم أخو الأمير حسام الدين أبو الهيجا ، فجهز صلاح الدين حملة عسكرية لمحاربته وأعوانه بقيادة أخيه الملك العادل ، الذي تمكن من قتله في ٧ صفر سنة ٥٧٠هـ (٣) / أوائل أيلول ١١٧٤م ، وبذلك فشلت ثورتهم ، وتوطد مركز صلاح الدين في مصر كلها.

---

(١) ابن شداد - النوادر السلطانية - ص ٤٩. وانظر أبو شامة - تاريخ الروضتين - ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) أبو شامة - تاريخ الروضتين - ج ١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) ابن واصل - مفرج الكروب - ج ٢، ص ١٧. وانظر المقريزي - السلوك - ج ١، ص ٥٧ - ٥٨. وانظر كذلك ابن كثير - البداية والنهاية - ج ١٢، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢)

توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين

حينما توفي نور الدين زنكي في بلاد الشام، كان صلاح الدين الأيوبي مشغولاً في قمع واحباط المؤامرات التي قامت ضده في مصر كما أسلفنا سابقاً ، مما اضطره للمكوث فيها لتثبيت سلطته وحكمه لها ، إلا أنه في تلك الفترة اضطربت البلاد الشامية ، وحدثت فيها العديد من الأمور التي دعت صلاح الدين بعد استقرار وضعه في مصر، الى التوجه اليها لضبطها وضمها الى سلطانه.

فقد توفي الأمير نور الدين زنكي ، ولم يترك خلفاً له سوى ابن صغير هو الملك الصالح اسماعيل ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وابنة صغيرة وزوجته عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر (١) .

أجمع الأمراء بدمشق بعد حجاج وصراع طويل ، على مبايعة الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين على الرغم من صغر سنه ، وأجلسوه مكان أبيه بالقلعة في دمشق ، وحلفوا له باجتماع كل من الأمير شمس الدين محمد ابن المقدم وهو أكبر الخدم ، والعدل شهاب الدين أبو صالح بن العجمي، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال بحضور القاضي كمال الدين الشهرزوري(٢) ، وقد وضعوا قيادة العساكر وأتابكية (٣) الملك الصالح اسماعيل بيد ابن المقدم (٤) .

---

(١) المقريزي - السلوك - ج ١ ، ص ٥٥ - ٥٦. وانظر ابن كثير - البداية والنهاية - ج ١٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥.

(٢) الشهرزوري : هو أبو الفضل محمد بن ابي عبد الله الشهرزوري ، وينسب الى بيت من بيوت العلم والدين، وقد اشتغل لدى نور الدين حتى أصبحت له مكانة كبيرة في بلاطه ، وبعد وفاته ظل مخلصاً لولده الملك الصالح، وقد كانت له علاقات حسنة مع صلاح الدين. انظر ابن كثير - البداية والنهاية - ج ١٢ ، ص ٢٩٦. وانظر ابن تغري بردى - النجوم الزاهرة - ج ١٢ ، ص ٢٩٦.

(٣) الأتابكية: وهي كلمة تركية وتعني المنصب الذي يطلق على مربي الأمراء والملوك الصغار.

(٤) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج ١١ ، ص ٤٠٥. وانظر ابن واصل - مفرج الكروب - ج ٢ ، ص٢.

ثم قاموا بارسال كتب التعزية بوفاة نور الدين ، والتهنئة بتولية الملك الصالح، لإعلام الأمراء ذوي العلاقة خارج منطقة دمشق لإقامة الخطبة باسم الملك الصالح، ومن تلك الكتب ما أرسل الى صلاح الدين بمصر وبتوقيع الملك الصالح. ومما جاء فيه « أطال الله بقاء مجلس سيدنا الملك الناصر السيد الأجل..... وعظم أجرنا وأجره في والدنا السعيد الملك العادل..... واجتمع أمراء الحضرة..... على البيعة المؤكدة والايمان المغلظة...... وما هاهنا يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله » (١) . وجاء في نص الكتاب أيضاً كما قال العماد الأصفهاني «فما كان اعتماد مولانا السيد الملك العادل رضي الله عنه (أي نور الدين) إلا إليه (أي على صلاح الدين) وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الكارث... » (٢) وربما دل النص السابق على أن ابن المقدم شعر هو وأتباعه بأن وصايته على الملك الصالح لن ترضي صلاح الدين، فأرسلوا إليه هذا الكتاب موضحين له بأن مهمته إنما هي قيادة العساكر ضد الصليبيين، وأن تلك المهمة كانت من تكليف سيده نور الدين الذي كان يعده لمثل هذه المهام والملمات.

فلما وصل كتاب الملك الصالح الى صلاح الدين ، جلس للعزاء ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث أمر باقامة الخطبة بالديار المصريه للملك الصالح ، وضربت السكة (الدنانير) باسمه ، كما أرسل صلاح الدين للملك الصالح كتاباً جواباً على كتابه السابق ، وقد أظهر فيه صلاح الدين حزنه وتأسفه على نور الدين، وأعلن استمرار وفائه واخلاصه للملك الصالح من بعد أبيه (٣) ، كما أرسل له مع الكتاب دنانير مصرية عليها اسمه، ليعرفه بأن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه (٤) .

ولما سمع سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي نائب نور الدين على الموصل بوفاة عمه نور الدين ، تقدم لإحتلال الجزيرة ، فاحتل نصيبين وأرسل جيشا الى الخابور فملكه، ثم سار الى حران فحاصرها لعدة أيام إلى أن ملكها، ثم

---

(١) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١، ص ١٥٥.

(٢) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١، ص ١٥٥. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٢.

(٣) البنداري ـ المرجع السابق ـ ج ١، ص ١٥٦ ـ ١٥٩.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٠٥.

حـاصر الرها وملكها ، ثم بعث الى الرقـة من يتسلمها ، وكذلك الى منطقـة سروج والى جميع بلاد الجـزيرة ما عدا قلعة جعبر ورأس العين (١) ، ولم يكتفي سيف الدين غازي بما احتله من البلاد بل أمر باعادة المكوس (٢) .

لمـا ورد الخـبر الى صـلاح الـدين باحـتـلال سـيف الدين غـازي بلاد الجـزيرة الشـامـيـة، أرسل الى الملك الصالح يعاتبه ، حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده وأخـذها، ليـحضر في خـدمـتـه ويصـد سيف الدين عن مقصده. وكتب إلى الأمراء يقـول «لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثق به مثل ثقته بي لسلم اليـه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعـجل عليـه الموت، لم يعـهد الى أحـد بتربيـة ولده والقيـام بخـدمـتـه غيري ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسـوف أصل الى خـدمـتـه وأجـازي أنعـام والده بخـدمة يظهر أثرها وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده» (٣) .

وفي تلك الفترة حـاول الصليـبيـون وبقـيـادة أموري ملك بيت المقدس انتهاز فـرصـة وفـاة نور الدين ، للتـدخل في شـؤون بلاد الشـام واحتلال بعض أراضيها، حـيث هجـموا على بانياس وحاصروها في أواخـر شوال سنة ٥٦٩هـ/ أيار ١١٧٤م ، فـخـرج اليـهم ابن المقدم من دمشق وهادنهم على أن يقدم لهم مبلغاً ضخماً من المال وأن يـطلق سراح أسراهم (٤) .

لما علم صـلاح الدين بشأن المعـاهدة التي أبرمـهـا ابن المقـدم مع الصليبيين، استنكرها أشد استنكار، إلا أن الأمراء بدمـشق لم ينقـضوا المعاهدة، مما دعا صلاح الدين الى الاسـتـعـانة بعلماء الدين لتـحريك الرأي العام ضد أولئك الأمراء ، حـيث كتـب الى القاضـي شـرف الدين ابن أبي عصـرون يطلـب منه القيام بتنبيـه المسلمين لاستنكار الأمراء النوريين (٥) .

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التـاريخ ـ ج ١١ ، ص ٤٠٧ . وانظـر ابن واصـل ـ مفرج الكروب ـ ج٢، ص ٤ ـ ٥.

(٢) المكوس: وهي كل مـا يسـتحصل من الأموال العامة لصالح ديوان السلطان. انظر القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ ج٣، ص٤٦٨ـ٤٧٠. والبنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١، ص ١٦٢ .

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٤) See: Stevenson, The Crusaders in the East, P 213.

(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٣٣.

هذا وقد تنافس كل من شمس الدين ابن المقدم في دمشق ، وشمس الدين ابن الداية في حلب على السيطرة على الملك الصالح اسماعيل ، وقد ساعدت الظروف ابن الداية ومالت لصالحه حين هادن ابن المقدم الصليبيين، فاستغل الوضع ونقل الملك الصالح اسماعيل الى حلب مدّعياً بأنها المقر الأصلي للدولة النورية، لكن الأمور لم تجري كما أحب ابن الداية ، وإنما نافسه سعد الدين كمشتكين أحد كبار القادة الذي قبض على شمس الدين ابن الداية وجميع إخوته ، واستولى على حلب واستبد بأمر الصالح (١) .

خشي أمراء دمشق أن يقصدهم سعد الدين كمشتكين الذي أيّد نفسه بالملك الصالح اسماعيل ، فيستولي على دمشق (٢) ويعاملهم كما عامل ابن الداية ، لذلك أرسلوا الى سيف الدين غازي في الموصل ليسلموها إليه ، فلم يجبهم الى طلبهم خوفاً من أن يكون في الأمر مؤامرة (٣) ، فحملهم الخوف من كمشتكين أن راسلوا صلاح الدين في مصر طالبين منه الحضور، فلم يتردد وإنما لبى النداء وتقدم نحو الشام.

استخلف صلاح الدين أخاه العادل على مصر، وانطلق نحو بلاد الشام وكان برفقته سبعمائة فارس، وهو في طريقه إليها، بعث برسالة الى الخليفة العباسي معلنا فيها أنه إنما خرج لإنقاذ الملك الصالح اسماعيل من أطماع المحيطين به، وللإشراف بنفسه على تربيته وتدبير ملكه، والقضاء على الفرقة التي أطمعت الفرنج في بلاده ، ولتوحيد ممتلكات نور الدين التي أضحت تمتد من حلب الى اليمن ، ولما في هذا التوحيد من فائدة في تحرير بيت المقدس من الصليبيين (٤) .

هذا ويرى المؤرخون أنه من الممكن أن يكون صلاح الدين قام بإعلام الخليفة

---

(١) لمعرفة المزيد عن كيفية نقل الملك الصالح إسماعيل من دمشق الى حلب انظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ . وابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٤١٥ .

(٢) ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة ـ ج ٦، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١. ص ٢٣٤.

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥٠ . وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

العباسي بذلك ليجعل من توجهه الى الشام عملا شرعيا (١) .

وصل صلاح الدين الى مدينة بلبيس المصرية في شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م ، ومن ثم سار حتى وصل مدينة بصرى الشام، فدخلها دون أية مقاومة ، ومن بصرى خرج صلاح الدين الى صلخد وسار معه حاكمها الى الكسوة (٢) ، وفيها نظّم صلاح الدين أمر دخوله لدمشق التي وصلها يوم الثلاثاء أواخر ربيع الآخر سنة ٥٧٠هـ / تشرين الثاني ١١٧٤م (٣) ، وفيها أُستقبل استقبالا طيباً ، وقد خرج كل من بها من العسكر اليه «فلقوه وخدموه» ، ودخل البلد ونزل دار والده المعروفة بدار العقيقي (٤) . وكان دخوله الى المدينة تحت شعار الولاء للملك الصالح اسماعيل ورد أملاكه التي أخذت منه في الجزيرة واعادتها الى سابق عهدها (٥) .

اتبع صلاح الدين في دمشق ذات السياسة التي نفذها في مصر بعد توليه الوزارة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، إذ عمد الى كسب الأهالي الى جانبه ، فأصدر أمره بانفاق الأموال وتوزيعها على الناس ، والمنادة بازالة المكوس ، وابطال القبائح والمنكرات التي أحدثت بعد وفاة نور الدين ، وكاتب أمرائه باتباع الأوامر الجديدة (٦) . ولما استقر أمره في دمشق ، ترك فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين يحكمها باسم الملك الصالح اسماعيل، وسار الى حمص التي دخلها في جمادى الأولى في نفس السنة، ثم استولى على مدينة حماة في أواخر الشهر نفسه من ذات العام (٧).

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .
(٢) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١، ص ١٧٧ .
(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤١٧ .
(٤) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٩ ـ ٢٠ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤١٧ .
(٥) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥٠ .
(٦) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ٢٣٦ . وانظر ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥٠، المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ٥٨ .
(٧) أبو شامة ـ تاريخ الرضتين ـ ج ١، ص ٢٣٨ .

(٣)

موقف صلاح الدين من الملك الصالح إسماعيل حتى وفاته سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م

تولى الملك الصالح إسماعيل المُلك شكلياً بعد وفاة والده نور الدين محمود زنكي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م ، اذ كان لا يزال طفلاً في الحادية عشر من عمره، وقد تمكن بعض المحيطين به من نقله من دمشق الى حلب ليتسنى لهم الانفراد بالوصاية عليه، وبالتالي تم نقل مركز الحكم من دمشق الى حلب كما أسلفنا سابقاً.

ولما تم لصلاح الدين اقرار الأمور في مصر، وتم استدعاؤه من قبل مقدمي دمشق ومنهم ابن المقدم لتسلمها ولاقرار الأمر فيها، سار اليها صلاح الدين وأقر الأمر فيها، بعد ذلك قرر التوجه الى حلب لتخليص الملك الصالح من سيطرة سعد الدين كمشتكين (١) ، وقد أعلن عن مقصده من قدومه الى الشام بما ورد في كتابه للملك الصالح اسماعيل ، الذي أرسله بعد دخوله دمشق سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، ومما جاء فيه «إنما جئت من مصر خدمة لك لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم (أي نور الدين) فلا تسمع ممن حولك، فتفسد أحوالك، وتختل أمورك، وما قصدي إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج» (٢) .

أخذ سعد الدين كمشتكين يخطط بحزم للسيطرة على حلب، كما سعى لابعاد صلاح الدين عن المدينة بكل الوسائل الممكنة ، حيث لجأ الى جمع أهل المدينة من حوله (٣) ، كما عمل على الاستعانة بالاسماعيلية في الشام ، والصليبيين في إمارة طرابلس ، والزنكيين في الموصل ، على أن يقوم الاسماعيلية بارسال بعض رجالهم لإغتيال صلاح الدين (٤) . وأن على الصليبيين بقيادة ريموند الثالث أمير طرابلس

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤١٧ ـ ٤١٨

(٢) ابن الجوزي ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـ ق ١، ج ٨، ص ٣٢٧.

(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ٢٣٩ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ٤١٨ ـ ٤١٩.

(وكان وصيا على ملك بيت المقدس الذي كان لا يزال صغيراً) بتهديد مؤخرة صلاح الدين بالهجوم على حمص (١) . ويبدو أن ريموند كان قد أدرك أهمية تحالفه مع الحلبيين، كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة وحلب ودمشق، لذلك عمل على ارسال جنده لنجدة أمراء حلب ليسد الطريق بوجه صلاح الدين (٢) .

توجهت قوات ريموند لمهاجمة مدينة حمص التابعة لصلاح الدين ، فوجد صلاح الدين نفسه محاصرا بين قوتين، إحداها في حلب بقيادة سعد الدين كمشتكين والثانية من الصليبيين في الجنوب، فلم يجد بدا من فك حصاره لمدينة حلب والتوجه الى الجنوب لمواجهة الصليبيين، وكان ذلك في رجب سنة ٥٧٠هـ/ شباط ١١٧٥م (٣) وما أن وصل صلاح الدين الى حمص حتى فرّ الصليبيون منها (٤) ، فسار في أعقابهم حتى مدينة بعلبك حيث فتحها مع قلعتها (٥) .

وفي أثناء انشغال صلاح الدين بفتح قلعة حمص وبعلبك ، خاف سيف الدين غازي على مصالحه وملكه في الموصل أن يستولي عليهما صلاح الدين حيث وجده «قد استفحل أمره وعظم شأنه فخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه وتعدى الأمر إليه» (٦) . فقام سيف الدين غازي بتجهيز قواته العسكرية والتي تقدر بحوالي ستة آلاف فارس ، وأرسلها بقيادة أخيه عز الدين مسعود للانضمام للقوات الحلبيه لمساندة كمشتكين في حربه ضد صلاح الدين (٧) .

لكن صلاح الدين استطاع أن ينقذ نفسه من الخطر المحدق به ، والذي كان

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١ ، ص ٢٣٨ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج١١ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

(٢) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٧٤٤.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤١٩ .

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٣٩.

(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج١ ، ص ٢٤٧ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٢٠.

(٦) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥٠. وانظر ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة ـ ج ٦، ص ٢٣.

(٧) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣١.

ينتظره لو وقعت الحرب بينه وهو في عساكر قليلة ، وبين القوات النورية بما فيها القوات الموصلية والحلبية ومنطقة الجزيرة ، حيث كاتب صلاح الدين عماد الدين زنكي صاحب سنجار وشقيق سيف الدين، وأطمعه في المُلك لأنه أكبر أمراء البيت الزنكي. وقد نجحت خطة صلاح الدين باستخدام أسلوب التفرقة بين الأخوين سيف الدين غازي في الموصل وعماد الدين في سنجار، مما أدى الى رفض عماد الدين للانقياد لمطالب أخيه ومحاربة صلاح الدين، فتحصن بقلعته وأحسن حفظها والدفاع عنها ضد أخيه سيف الدين (١) ، الذي ذهب لحصاره في شهر رمضان من سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م (٢) .

تقدمت القوات الموصلية والحلبية الى مدينة حماة التابعة لصلاح الدين وحاصروها ، إلا أنهم سرعان ما رحلوا عنها لعدم تمكنهم من السيطرة عليها ، وأرسل الأمراء الحلبيين والموصليين النائب السلطاني في حماة «علي بن أبي الفوارس» طالبين منه تسليم المدينة ، وذلك على قول العماد الأصفهاني «إنما وصلنا للصلح والاجتماع فيما يعود بين الجانبين بالنصح والنجح» (٣) .

كتب النائب السلطاني لصلاح الدين يحثه على القدوم إليه علّه يتم الصلح بين المتخاصمين، فالتقى صلاح الدين بسعد الدين كمشتكين وشهاب الدين ابو صالح بن العجمي، وبالرغم مما طُلب منه من التنازل عن كل الحصون التي فتحها في بلاد الشام ، أجابهم صلاح الدين الى طلبهم ، شريطة أن يكون نائباً عن الملك الصالح وله مدينة دمشق فقط، لكن الحلبيين والموصليين وجدوا في صلاح الدين ضعفاً منه لاجابتهم على كل ما طلب منه، إضافة الى قلة عساكره، فظنوا فيه العجز، فجاوزوا حدهم في طلب منطقة الرحبة وأعمالها التي هي لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه (٤) ، فامتنع صلاح الدين عن الاجابة لطلبهم لأنه لم يرد أن يحدث أي

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٤٢٠. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣١.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٤٢٠.

(٣) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج١ ، ص ١٨٦ .

(٤) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١ ، ص ١٨٦ . وعن أبي طيء انظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١ ، ص ٢٤٩.

انشقاق بين صفوفه، فنهض مقدموا حلب أي قادتهم من مجلسهم الى خيمهم، ومن ثم ساروا بعساكرهم الى جانب نهر العاصي من شيزر وأظهروا بأنهم يريدون الحرب (١) .

لم يجد صلاح الدين بدا من قتالهم، فتقدم الى قرون حماة، ومن هناك حاول مصالحتهم مرة أخرى كما ذكر ابن شداد «فما صالحوه ورأوا أن في الحرب معه خير وسيلة لإصلاح أوضاعهم ونيل مقصدهم» (٢) مما اضطر صلاح الدين الى إعلان الحرب عليهم (٣) .

وفي رمضان سنة ٥٧٠هـ/ نيسان ١١٧٥م التحم الطرفان في معركة حامية انتصر فيها صلاح الدين على الزنكيين (٤) ، وغنم كل ما كان معهم ، وتبعهم الى حلب قاصدا محاصرتها ، كما أمر عندئذ بقطع الخطبة للملك الصالح اسماعيل وإزالة اسمه عن الدنانير في بلاده (٥) .

وفي هذه المرة وهي الثانية لحصاره لمدينة حلب ، راسله الحلبيون (٦) ، وطلبوا منه أن يكون لهم ما بأيديهم ، ولصلاح الدين ما افتتحه من بلاد الشام ، فوافق على ذلك وانسحب من حصار حلب في العشر الأول من شوال سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م (٧) .

كان لانتصار صلاح الدين عند قرون حماة نتائج ايجابية هامة ، إذ أعلن نفسه حاكما على مصر والشام ، وتخلى عن تبعيته للملك الصالح، الذي لم يبق له سوى

---

(١) Runciman, A History of the Crusaders, Vol 2, P 409.
(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥١ .
(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٥٠ .
(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .
(٥) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٢٢ . وانظر ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥١ .
(٦) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٢٢ . وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢، ص ٢٩٠ .
(٧) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٣ .

مدينة حلب وبعض القلاع المحيطة بها (١) . كما قام الخليفة العباسي بارسال الخلع السنية والتشريفات العباسية والأعلام السود ، إضافة الى التوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام (٢) . وبهذا التقليد أصبح صلاح الدين سلطانا شرعيا بنظر المسلمين ووارثاً حقيقياً لدولة نور الدين وجهاده .

لكن عندما علم الأمير سيف الدين غازي حاكم الموصل بأمر الصلح بين الحلبيين والملك الصالح اسماعيل وبين صلاح الدين، عتب على الحلبيين ووبخهم وأرسل الى ابن عمه وأمراء حلب يوبخهم على التسرع في توقيع الصلح مع صلاح الدين ، وحثهم على نقضه وقتال صلاح الدين . فما لبث أن أذعن أمراء حلب وقادتها لطلبه في نقض الصلح وتحالفوا معه ، فتجدد القتال بين المتحالفين من الحلبيين والموصليين وبين قوات صلاح الدين عند « تل السلطان » بالقرب من حلب، وانتصر صلاح الدين للمرة الثانية على الزنكيين وغنم منهم كثيرا (٣) وكان ذلك في شوّال سنة ٥٧١هـ/ نيسان ١١٧٦م.

بعد هذا الانتصار الساحق الذي حققه صلاح الدين على الزنكيين، انتقل الى الاستيلاء على الحصون والقلاع المحيطة بحلب ليسهل عليه فتحها (٤) ، وبعد أن أحرز انتصاراته في المناطق المحيطة بحلب ، اتجه صلاح الدين لإلقاء الحصار عليها في منتصف ذي الحجة سنة ٥٧١هـ / حزيران ١١٧٦م ، وأبقى حصاره عليها حتى مطلع سنة ٥٧٢هـ عندما طلب الحلبيون الصلح معه ، فأجابهم صلاح الدين إليه (٥) ، على أن تكون حلب وأعمالها للملك الصالح اسماعيل، وأن يكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من حماة وما يليها جنوبا، كما وهب مدينة الاعزاز لابنة نور الدين محمود الصغيرة (٦) .

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٤٢٢ . وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢ ، ص ٢٩١ .

(٢) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. وانظر المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ٦٠.

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٥٦.

(٥) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص٥٢.

(٦) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٣١.

وبعد الانتهاء من عقد الصلح مع النوريين توجه صلاح الدين الى حصون الاسماعيلية في مصياف للانتقام منهم على محاولاتهم المتعددة لإغتياله، ويتدخل خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة ووساطته وشفاعته بهم، انتهى الأمر بعقد معاهدة سلام بين الطرفين (١) . وبعدها رحل صلاح الدين عنهم الى حماة ومنها خرج عائدا الى دمشق التي وصلها في ١٦ صفر سنة ٥٧٢هـ/ آب سنه ١١٧٦م.

وفي دمشق تمّ زواجه من عصمة الدين خاتون، أرملة نور الدين وبنت معين الدين أنر وأم الملك الصالح اسماعيل، وكانت مقيمة في قلعة دمشق، وقد حضر القاضي ابن عصرون العقد ، ومكث صلاح الدين قرب زوجته الجديدة ليلتين ثم عاد الى مصر (٢) ، وقد يكون صلاح الدين قصد من زواجه من أرملة نور الدين محمود أن يبدو وريثاً حقيقياً لسيده نور الدين (٣) .

وهكذا فشل صلاح الدين في الاستيلاء على مدينة حلب بالرغم من حصاره لها ثلاث مرات متتابعة، وبقي الملك الصالح اسماعيل صاحب حلب حتى وافته المنية في رجب سنة ٥٧٧هـ / كانون الثاني ١١٨١م وهو في التاسعة عشرة من عمره بعد أن أصيب بمرض القولنج (٤) .

---

(١) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١، ص ٢٢٣.
(٢) البنداري ـ سنا البرق الشامي ـ ج ١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٤) القولنج :ـ مرض يصيب بطن الإنسان.

(٤)

موقف صلاح الدين من القوى الصليبية في الفترة ما قبل المعارك الكبرى

بعد أن تم لصلاح الدين النصر على الزنكيين في حمص وحماة وقرون حماة، وأعلن نفسه سلطانا على بلاد مصر والشام، أوقع ذلك الانتصار الرعب في قلوب الصليبيين وحسبوا لقوته ألف حساب. ولما خرج صلاح الدين في محرم سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م بقواته العسكرية من دمشق، ظن الصليبيون أنه يعتزم الهجوم على المناطق التي يحتلونها، وقد أصيبوا في ذلك العام بشدة كبيرة، نظراً للجدب الذي أصاب منطقة الشام (١) ، فأرسلوا اليه وفدا لمفاوضته على عقد هدنة بينهما (٢) .

ولما كان صلاح الدين في تلك الفترة ينوي التفرغ لمجابهة الزنكيين في الشام والجزيرة ، ويسعى لإقامة الوحدة بين المناطق الإسلامية المتفرقة ، لذلك كانت مصلحته تتطلب المهادنة قليلاً مع لصليبيين ، ليتمكن من حشد الطاقات البشرية والاقتصادية ضدهم . كما أراد في ذلك الوقت أن يعطي لعساكره قسطاً من الراحة وخصوصا وأنه كان قد توصل الى عقد هدنة مع الحلبيين في تلك السنة، لذلك كله أجابهم صلاح الدين الى طلبهم بعد أن اشترط على الصليبيين أموراً التزموا بها (٣) .

وقبل أن تنتهي مدة الهدنة المبرمة بين الصليبيين وصلاح الدين، راسل بلدوين الرابع ملك بيت المقدس الدول الأوروبية ، طالبا منهم النجدات للوقوف في وجه صلاح الدين الذي عظمت قوته في بلاد الشام، بعد أن تفرغ لمجابهة الزنكيين وتمكن من فتح الكثير من حصونهم وقلاعهم كما تبين من قبل.

لما غادر صلاح الدين بلاد الشام في عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م الى مصر ، انتهز بلدوين الرابع الفرصة وأغار بقواته على كل من حمص وحماة، وكادت حماة تسقط

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢، ص ٢٩٢.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٣٥.
(٣) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٥.

بأيديهم لولا صلابة المدافعين عنها ، بعد حصار لها دام أربعة أيام (١) ، وقد أرسل صلاح الدين في الكتاب الفاضلي الى الخليفة العباسي ببغداد ما يدل على نقض الصليبيين لعهدهم معه «خرج الكفار الى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكماً، غادرين غدراً صريحاً . . . . . ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى . . . .» (٢) .

على أثر نقض الصليبيين للهدنة معه ، خرج صلاح الدين من القاهرة في جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، وخيم بظاهر بلبيس قاصدا الهجوم على مملكة بيت المقدس، فوصل العسكر الأيوبي الى عسقلان واستولى على ما كان بها وقتل عدداً من الصليبيين لنكثهم العهد (٣) . ولما رأى العسكر الأيوبي هدوء الصليبيين وخمودهم انتشروا في معاقلهم القريبة لغرض الحصول على الغنائم ، وبقي صلاح الدين بقليل من عسكره عند الرملة بالقرب من « تل الصافية » (٤) استعدادا للهجوم على الصليبيين، لكن سرعان ما اجتمعت حاميات المدن الصليبية والقريبة حول ملك بيت المقدس ـ الملك بلدوين الرابع ـ وباغتت قوات صلاح الدين في معركة الرملة ، فحلّت بالمسلمين هزيمة (٥) عاد على أثرها صلاح الدين بما تبقى من قواته الى مصر.

ولكي يكسب صلاح الدين ثقة المسلمين به ، اتبع سياسة حكيمة قضت بتوزيع الأموال الكثيرة على الناس وخاصة المتضررين منهم أو على أهاليهم، وبذلك أرضى الشعب المصري ودفعه الى نسيان الآلام التي أصابته نتيجة لهذه الكسرة (٦) .

لكن معركة الرملة هذه أدت الى رفع معنويات الصليبيين ودعمت مركزهم، حيث سعى الملك بلدوين الرابع الى إنشاء الاستحكامات والحصون القوية في المنطقة، واختار بناء حصن قوي عند «مخاضة الاحزان» في سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م.

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ـ ج ١، ص ٢٧٥.
(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٧٥.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٣٥ (See: Runciman, op cit. 11. P 410) .
(٤) تل الصافية: حصن بنواحي الرملة قرب بيت جبرين، معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٧ .
(٥) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٧٥٧ ـ ٧٥٨.
(٦) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ١، ص ٢٧٤.

وهو يبعد عن دمشق مسافة يوم، وبينه وبين طبرية وصفد نصف يوم (١) .

استشعر صلاح الدين خطورة هذا الحصن على بلاد المسلمين، لكنه كان مشغولا بأمر بعلبك، لذلك أجّل الالتفات إليه، فلما أتم فتح بعلبك، تفرغ لحصن « بيت الاحزان » وهجم عليه ، مما اضطر الملك بلدوين الرابع الى استدعاء قواته لمحاربة صلاح الدين (٢) .

فلما جاء صلاح الدين الخبر بأن الصليبيين عازمون على قتاله، توجه إليهم والتقى بهم عند «تل القاضي» في سهل مرج عيون، فانتصر عليهم وهزمهم وأسر بعضا من فرسانهم ، منهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وأمير طبرية ، وقد قدر عدد أسراهم بـ ٢٧٥ رجلاً وقد نقلوا الى دمشق (٣) .

بعد هذا الانتصار تمكن صلاح الدين من فتح « بيت الاحزان » وهدمه تماماً (٤) . ومن ثم عقدت هدنة بينه وبين مملكة بيت المقدس في أيار من عام ١١٨٠م (٥) ، وتبعها كذلك هدنة أخرى مع ريموند الثالث أمير طرابلس . غير ان الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس لم تستمر إلا سنة واحدة ، لأن القائد ريجنالد (أرناط) صاحب بارونية الكرك نقضها بالاستيلاء على قوافل تجارية اسلامية كانت قادمة من مصر ، فاستولى على ما كان فيها من أموال ومتاع (٦) . كما عزم أرناط في تلك السنة أي سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١ ـ ١١٨٢م على غزو المدينة المنورة، بقصده تيماء من أرض الحجاز، غير أن عز الدين فرخشاه صده عن مطلبه (٧) .

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٧٢.

(٢) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٧٦١.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٥٦. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢ ، ص ١١. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢ ، ص ٨٢.

(٥) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٧٦٣ .
وانظر See: Runciman, op cit, 11. P 416.

(٦) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٠١ ـ ١٠٢. وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٢، ص ٣٠٩.

(٧) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

ويذلك أخفقت حملة أرناط في الوصول الى الأماكن المقدسة في بلاد الحجاز ، كما أسفرت عن عداء شديد بينه وبين صلاح الدين (١) ، مما دفع صلاح الدين الى التصميم على فتح الكرك، فهاجمه في ربيع الاخر سنة ٥٨٠هـ/ آب ١١٨٤م وفرض الحصار عليه ، وكاد ينجح لولا تدخل ملك بيت المقدس الذي أفسد الحصار ، مما اضطر صلاح الدين للانسحاب ، لكنه انتقم بالهجوم على نابلس وسبسطيه وجنين (٢) .

وبعدها سعى صلاح الدين جاهدا الى توحيد القوى الإسلامية في شمال الشام والعراق ومصر قبل البدء في خوض المعارك الفاصلة مع الصليبيين.

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٢٨ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٥٠٦ . وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٥٦ .

(٥)

إتمام الوحدة بين مصر وبلاد الشام والجزيرة بامتلاك حلب وسنجار والمصالحة مع الموصليين

على الرغم من توقيع صلاح الدين لمعاهدة صلح مع الأمراء الزنكيين في كل من الموصل وحلب ، إلا أنه ظل ينتظر الفرصة المناسبة لإتمام عملية التوحيد بين المناطق الإسلامية بضم مدينتي حلب والموصل تحت حكمه ، وقد واتته الفرصة الملائمة لذلك بعد مرور خمس سنوات تقريباً على ابرامه الصلح معهم.

فقد توفي الأمير سيف الدين غازي ـ أمير الموصل ـ في صفر ٥٧٦هـ / آب ١١٨٠م وكان عمره آنئذ ثلاثين سنة ، حكم فيها عشر سنين وثلاثة أيام (١)، وكان قد أوصى بالامارة لأخيه عز الدين مسعود بعد وفاته لصغر سن أبنائه.

وكذلك توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين في رجب سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م ، وقد أوصى أمراءه قبل وفاته بتسليم إمارة حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود (٢) .

لكن الخلاف وقع بين الاخوين عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار ، بسبب طمع الثاني بتملك حلب مقابل التنازل عن سنجار لأخيه عز الدين، وقد قام بتهديده في حالة عدم رضاه، بالعمل على تسليم مدينة سنجار لصلاح الدين . ونظرا لأهمية موقع مدينة سنجار المتوسط بين أملاك الزنكيين يمكن لصلاح الدين عن طريقها تهديد أملاكهم في كل من الموصل وحلب على السواء (٣) ، لذلك لم يجد عز الدين بداً من الموافقة على طلبه وتسليمه حلب.

كان صلاح الدين يراقب الأمور عن كثب لإدراكه مدى تخوف الزنكيين منه،

---

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥٤ .

(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٥٥ . وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

ولما تم تحالف صاحب حران معه ، أخذ يثبت أقدامه في منطقة الجزيرة ليفصل بين أملاك الزنكيين في كل من حلب والموصل ، حيث فتح مدينة الرها وبعض المناطق الأخرى في الجزيرة ، ثم توجه بعدها لحصار مدينة الموصل في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م، لكنه على الرغم من شدة حصاره لها لم يحقق مطلبه منها، بسبب اعداد صاحبها عز الدين مسعود عدته للحصار، من حشده لعدد ضخم من الرجال داخل المدينة، ومن الكميات الوافرة من الطعام والسلاح (١) . وكذلك بسبب قطع أهالي سنجار طريق الإمدادات على صلاح الدين ، لذلك كله قرر التوجه الى سنجار وفتحها ، وتم له ذلك بسرعه . وبهذا الفتح تمكن صلاح الدين من الفصل بين أملاك الزنكيين في كل من حلب والموصل (٢) .

بعد فتحه لمدينة سنجار اهتم صلاح الدين بمدينة حلب وقرر فتحها ، فنزل على حصن «تل خالد» وهي من أعمال حلب ، فحاصرها ورماها بالمنجنيق حتى طلب أهلها الأمان ، فآمنهم وتسلم قلعتها في ١٢ محرم سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م (٣) . ثم سار صلاح الدين الى حصن «عين تاب» فبادر صاحبها الأمير ناصر الدين محمد بتقديم الطاعة والولاء له، وطلب منه أن يبقيه على إمارة الحصن، فوافق له . ومن ثم تقدم من عين تاب لحصار حلب (٤) ، فنزل عليها في محرم سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م (٥)، وأخذ يظهر للحلبيين أنه ينوي البقاء، وأنه يبني مساكن له ولاصحابه وعساكره، ليدفع الحلبيين الى الاستسلام من دون قتال، فخشيه صاحبها عماد الدين زنكي الثاني وأدرك أنه لا قدرة له على المقاومة ، لذلك قرر عدم الاستنجاد بالقوى المحيطة به وأخذ يفكر بمفاوضة صلاح الدين ، بأن أرسل إليه سراً يعرض تنازله عن حلب مقابل اعطاءه مدينة سنجار، فوافق صلاح الدين على طلبه وزاده الخابور

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥ . وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١١٩ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٩٥ .

(٤) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ٨١ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٩٥ .

(٥) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٤٩٦ .

ونصيبين والرقة ، على أن يحكمها كتابع له ، وأن يلحق به بجنده حين الطلب (١) ، وتم ذلك في صفر ٥٧٩هـ / حزيران ١١٨٣م .

وبفتحه لمدينة حلب أصبحت بلاد الشام بكاملها بيد صلاح الدين الأيوبي ، إلا أنه عقب امتلاكه حلب انشغل بقتال الصليبيين ، في حين كان يطمح دائماً بالحصول على مدينة الموصل ، لذلك سعى الى عزلها بجعل الأمراء المحيطين بها يدينون له بالتبعية ، ولما تمّ له ذلك فرض حصاره على الموصل في ربيع الثاني سنة ٥٨١هـ/ تموز ١١٨٥م (٢) ، وفي اثناء حصاره للموصل ، توجه بقوة من عسكره وقام بفتح مدينة ميافارقين (٣) ، وبها استولى على ديار بكر ، وبعد أن أتم فتح مدينة ميافارقين ، عاود تشديد حصاره على الموصل ، ودارت بين الطرفين سلسلة من المفاوضات حتى أسفرت عن عقد صلح بين الجانبين، اتفقا فيه أن يبقى عز الدين مسعود حاكما على الموصل، على أن يكون تابعاً لصلاح الدين ، وأن يخطب لصلاح الدين على منابر بلاده ، وأن يضرب السكة باسمه (٤) .

وبإتمام عقد الصلح مع الموصليين تمت الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة وأصبح صلاح الدين سلطاناً وقائداً لكافة القوى الاسلامية الممتدة في كل من مصر وبلاد الشام والجزيرة.

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ . وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٤٢ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥١١ ـ ٥١٤.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥١٥ ـ ٥١٦.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٥١٦ ـ ٥١٨ . وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص١٧٢ .

الفصل الخامس

صلاح الدين
وإعلان الجهاد العام ضد الصليبيين

صلاح الدين
وإعلان الجهاد العام ضد الصليبيين

١ ـ الموقف العام بعد إتمام الوحدة

عرفنا مما سبق أنه في الفترة التي كان يسعى فيها صلاح الدين الى توحيد البلاد تحت إمرته، اقتصرت سياسته مع الصليبيين على التصدي لهجماتهم على المناطق التابعة له ، أو في الإغارة على بعض معاقلهم وحصونهم المتفرقة في المناطق ، والموافقة على مهادنتهم، دون الدخول معهم في مواجهة كبيرة وشاملة، لسعيه الى توحيد القوى الاسلامية والتعبئة الشاملة التي تمكنه من إحراز النصر المؤزر عليهم.

فلما تم له إتمام الوحدة بين المناطق الممتدة من النيل الى الفرات ، وأتم توحيد قواها وطاقاتها البشرية والمادية تحت إمرته ، بلغت قوته ذروتها وبذلك أصبح مرهوب الجانب في داخل البلاد وخارجها على السواء.

ففي الداخل، أصبح أمراء المسلمين ومعهم الخليفة العباسي يؤيدونه ويساندونه بكل طاقاتهم ، بعد أن كسب محبة وثقة الجماهير الإسلامية لقوته وشجاعته وكرم أخلاقه.

وفي خارج البلاد الإسلامية استطاع صلاح الدين من فرض هيبته ، حيث سعت الامبراطورية البيزنطية الى عقد صلح معه لتنهي علاقاتها العدائية معه (١) .

أما بالنسبة للصليبيين ، فقد ساءت أحوال مملكة بيت المقدس في تلك الفترة بوفاة الملك بلدوين الرابع ، فاعتلى العرش من بعده الملك بلدوين الخامس الذي ما لبث أن مات، فتلاه «غي دي لوزنيان» الذي لم يكن على قدر من المسؤولية مما أدى الى تخبط الصليبيين في مشاكل داخلية.

وبنهاية عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م كانت جميع الأمور والظروف في صالح السلطان

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ١٣٢ .

صلاح الدين، الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة ليتزود بذريعة مناسبة لإعلان الجهاد ضد الصليبيين ومحاربتهم ، على الرغم من محافظته على شروط المعاهدة المبرمة بينه وبين ملك بيت المقدس سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م (١) .

وقد واتته الفرصة الملائمة ، عندما نقض أرناط صاحب بارونية الكرك المعاهدة المبرمة بين صلاح الدين وبينهم ، مستغلاً موقع حصنه الواقع على خط التجارة بين مصر والشام والحجاز، واستولى في سنة ٥٨٢هـ أوائل سنة ١١٨٧م على قافلة تجارية قادمة من القاهرة الى دمشق ، فأخذها بأسرها وأسر جنودها المرافقين وأخذ خيلهم وعُدتهم وسامهم العذاب (٢) .

على أثر سماع صلاح الدين لذلك الأمر ، أرسل الى ملك بيت المقدس يذكره بالهدنة المعقودة، وطلب منه إعادة ما سلبه أرناط وفصله ، فطلب الملك غي دي لوزنيان من أرناط ذلك ، لكنه رفض معتبراً نفسه مستقلاً وليس بينه وبين صلاح الدين هدنة (٣) ، فردَّ الملك على صلاح الدين بعجزه عن فصله أو رد ما سلب . «فنذر السلطان دمه» (٤) .

كل ذلك دعا صلاح الدين الى إعلان الجهاد ، وأرسل الى جميع الأطراف والبلاد الإسلامية للتعبئة العامة لجميع القوى الإسلامية ، من موارد بشرية ومادية للمسير لحرب أرناط.

كان صلاح الدين آنذاك بدمشق، فخرج مسرعاً الى الجنوب متجها الى «قصر السلام» القريبة من بصرى، ليمنع اعتداء أرناط على قوافل الحجاج القادمة من

---

(١) اجتمع أمراء الإمارات الصليبية في مملكة بيت المقدس، وأقروا عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها أربع سنوات تبدأ من تاريخ إبرامها، وقد أتاحت هذه الهدنة للصليبيين فرصة لتصفية كثير من مشاكلهم الداخلية التي نشبت بينهم بعد وفاة الملك بلدوين الرابع. انظر د. سعيد عاشور ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ـ ص ٥٠ .

(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٧٥. وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥٢٧.

(٣) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٨٥ .

(٤) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٧٥. وللمزيد انظر ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٧٤ ـ ٧٥.

مكة والتي قيل أن أخته كانت فيها (١) . وكان ذلك في محرم سنة ٥٨٣هـ نيسان ١١٨٧م ، بعد أن ترك ابنه الأكبر الأفضل عند رأس الماء القريبة من دمشق لتتجمع القوات عنده.

تمكن صلاح الدين من منع أرناط وقواته من الاعتداء على قافلة الحجاج ، التي تمكنت من الوصول الى مصر بسلام ، وبعد ذلك توجه صلاح الدين نحو الكرك لمهاجمتها مشددا الحصار عليها ، كما أمر ابنه الأفضل بفتح جبهة في الجليل ، فتمكنت قواته من التغلب على فرقة من الداوية اعترضت طريقها بالقرب من صفورية ، وفتكوا بهم وعادوا محملين بالغنائم والأسرى (٢) .

لم تتمكن قوات صلاح الدين من فتح حصن الكرك بسبب تحصينها الجيد وقلعتها المنيعة ، فأمر صلاح الدين برفع الحصار عنها ، وعاد الى رأس الماء في حوران ، حيث التقى بقوات ابنه الأفضل هناك ، فكان اثنى عشر ألفاً من المقاتلين (٣) .

خرج صلاح الدين بتلك القوات وسار بهم الى الأردن يوم الجمعه ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ونزل بثغر «الاقحوان» وأقام بها خمسة أيام يعين مواقع القتال ومواقف الأمراء ، وكان عسكره قد أحاط ببحيرة طبرية (٤) .

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١.
(٣) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٧٥.
(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٧٥ ـ ٧٦.

٢ ـ استعدادات الصليبيين

عندما علم الصليبيون باجتماع قوات صلاح الدين الأيوبي عند طبرية، أدركوا خطته في أنه لا بد قاصدهم ، فتداعى ملوك وأمراء الصليبيين وقادتهم في المنطقة ، ووحدوا صفوفهم ، وتناسوا أحقادهم وحشدوا جيوشهم في صفورية ، وعقدوا اجتماعا للحرب في عكا (١) ، لبحث الموقف ومناقشة الأمر فيما بينهم.

تحدث ريموند الثالث أمير طرابلس، وقدم عرضا عن قوة المسلمين التي أخذت تتجمع ، وقدم خطة عسكرية تقضي بعدم مغادرة قواتهم لصفورية ، نظراً لما تتمتع به صفورية من موقع جغرافي ممتاز، وبغزارة مياهها حتى في زمن الصيف، ولخلو المناطق الأخرى من الماء (٢) ، كما كان الأمير ريموند يقدر قوة صلاح الدين ويخشى مواجهته (٣) .

لكن أغلبية ملوك وأمراء الصليبيين عارضوا خطة ريموند الثالث ، وتوصلوا الى أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم ، وقدموا خطة بديلة تقضي بتجميع أحسن وأفضل قوات الصليبيين ، وتسييرها نحو طبرية حيث كانت قوات صلاح الدين مرابطة فيها، ومهاجمته والقضاء عليه وعلى قواته.

تمكن الصليبيون من حشد جيش كبير في صفورية ، يمثل كافة الممالك والإمارات الصليبية، زاد قوامه على (٥٠) ألف مقاتل وفارس (٤) . كما تقرر حضور البطريرك هرقل من مملكة بيت المقدس، لاشتراك في الحرب بصحبة صليب الصلبوت المقدس (٥) ، إلا أن مرضه منعه من الحضور ، فأرسل الصليب الى أسقف عكا (٦) ،

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ١٣٩ .

(٢) See: Stevenson, The Crusaders in the East. PP 244 - 245 .

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥٣٣ .

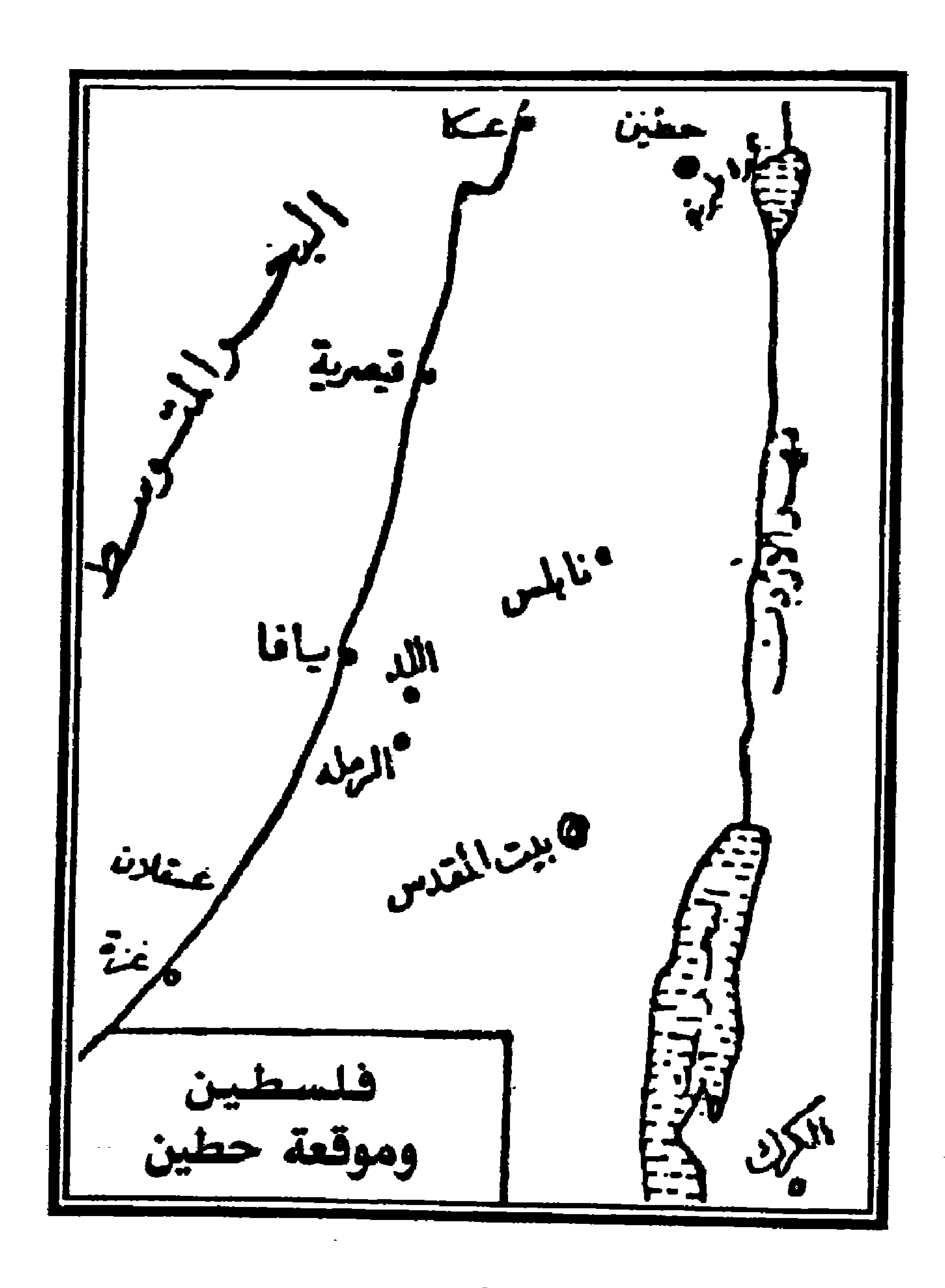
(٤) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ٩٢.

(٥) صليب الصلبوت : هو صليب من الخشب يعتقد الصليبيون أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه، ولذلك أصبح مقدسا عندهم.

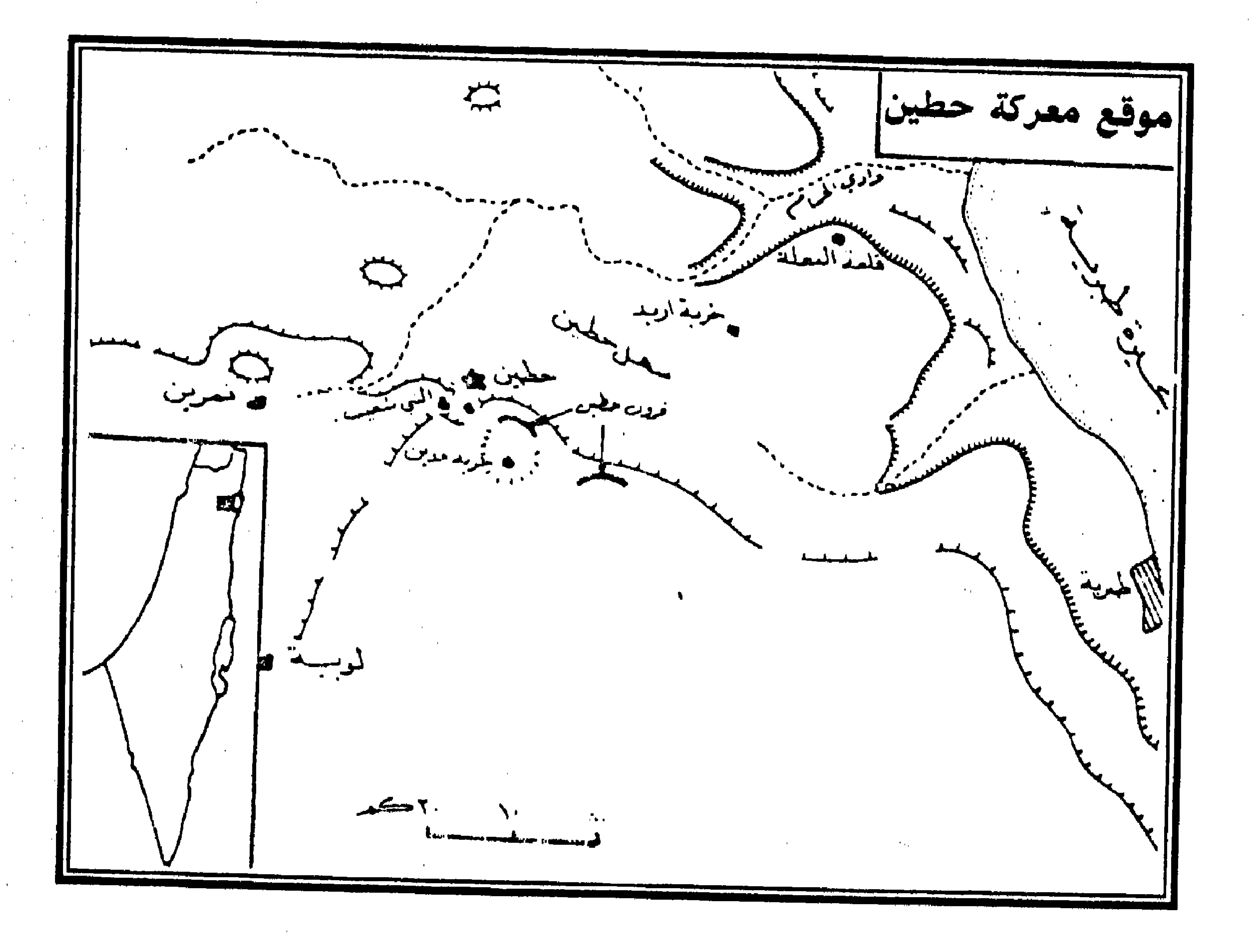
(٦) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ـ ص ٢٩٠ نقلاً عن Grousset. op cit. 11. P 787 .

كما عينوا هيئة لقيادة المعركة مع المسلمين بقياة صلاح الدين ، من غي دي لوزنيان ملك بيت المقدس وريموند الثالث أمير طرابلس وأسقف عكا.

ومن خلال دعوة الصليبيين للبطريرك بصحبة الصليب الصلبوت للاشتراك في الحرب ، يتبين أن الصليبيين كانوا يخططون لحرب شاملة ضد صلاح الدين ولم تكن مجرد غزوة عابرة.



فلسطين
وموقعة حطين


موقع معركة حطين
بحيرة طبرية
طبرية
قلعة المعلة
خربة اربد
سهل حطين
حطين
قرون حطين
خربة مدين
لوبية
١٠
٢٠ كم

٣ ـ معركة حطين

بعد أن أصدر الملك غي دي لوزنيان أوامره للجيوش المحتشدة في صفورية بالتقدم والسير نحو قوات صلاح الدين عند طبرية ، استعد الجيش للتحرك والتقدم واتخذ طريقه إلى طبرية ، فتعرض أثناء سيره شرقاً لكمائن المسلمين ، كما عانى من وعورة الطريق وحرارة شمس الصيف.

وفي الأول من تموز سنة ١١٨٧م ورد الى مسامع صلاح الدين من عيونه في المنطقة ، بشروع الصليبيين في الزحف إليه ، فاطمأن الى نجاح خطته في استدراج الجيش الصليبي إليه وقال : «جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد وإذا صحت كسرتهم، فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع» (١) .

ترك صلاح الدين قوة صغيرة تحاصر طبرية ، وانسحب على رأس قواته نحو خمسة أميال ، ليرابط غربي طبرية عند قرية حطين ، وهي قرية صغيرة تقع في منطقة غنية المرعى ووفيرة الماء ، وقد حرص صلاح الدين على أن يقف رجاله بحيث يحولون بين الصليبيين والوصول الى الماء في طبرية ، في وقت اشتد فيه الحر والعطش .

وفي صبيحة يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ / ٣ تموز ١١٨٧م وصل الجيش الصليبي الى «سطح جبل طبرية» ، وهي منطقة مرتفعة على شكل هضبة ولها قمتان أشبه بالقرنين، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم «قرون حطين» ، فلما وجد الصليبيون أنهم لا يقوون على المسير بسبب الإنهاك والعطش الشديد، قرروا المبيت فوق الهضبة بعيداً عن خطر المسلمين.

وعندما أشرقت شمس اليوم التالي السبت ٤ تموز عام ١١٨٧م (٢) ، اكتشف الصليبيون أن صلاح الدين استغل عتمة الليل ليضرب الحصار حولهم ، حتى أحاطت بهم قواته ، وبدأ الهجوم على القوات الصليبية بعد أن أمر صلاح الدين بإشعال النار والأعشاب والأشواك التي تكسو الهضبة ، وكانت الريح باتجاه

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٧٦.

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٧٥.

الصليبيين فحملت حرّ النار والدخان إليهم (١)، وبذلك تمكنت قوات صلاح الدين من سحق قواتهم، وإبادة أكبر جيش حشده الفرنجة في بلاد الشام، وانتهت المعركة باستسلام القادة (٢) بمن فيهم ملك بيت المقدس غي دي لوزنيان وأرناط وغيره (٣)، وكذلك عدد كبير من البارونات وفرسان الداوية والاسبتارية، ولم يستطع النجاة من أمراء الصليبيين سوى ريموند الثالث أمير طرابلس ، الذي هرب الى صور في بداية المعركة مع قلة من رجاله.

وبعد انتهاء المعركة أدى صلاح الدين صلاة الشكر لله على نصره ، ومن ثم جلس في خيمته وطلب احضار ملوك الصليبيين ومقدميهم ، فبادر بإعطاء الملك لوزنيان ماء ليشرب بعد أن أنهكه العطش، ثم نهض صلاح الدين نحو أرناط وعدّد عليه اساءاته وأفعاله وذكّره بجرائمه ، ثم ضربه بسيفه وقتله ، كما أمر بقتل فرسان الداوية والاسبتارية لسفكهم لدماء المسلمين ، بينما طمأن بقية الملوك والأمراء على حياتهم وأمر بنقلهم الى دمشق حيث جرى الاحتياط عليهم (٤) .

والحق أن معركة حطين كانت بالنسبه للصليبيين أضخم من كارثة حربية ، فلم ينتج عنها فقط أسر مليكهم ، وضياع هيبة ملكهم في فلسطين وحسب ، وإنما نتج عنها أيضا نقص واضح في الفرسان المحاربين ، بعد أن سقط أفضل فرسانهم بين قتلى وأسرى في هذه المعركة الفاصلة والخالدة.

أما من جهة أخرى ، فقد كان لانتصار صلاح الدين في معركة حطين صدى بالغ الأثر في نفوس المسلمين عامة ، وأهالي دمشق خاصة حيث كانت دمشق في تلك الآونة مركز ومقر قيادة صلاح الدين، وفيها قضاته، وكتابه الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله يدعونه النصرة لصلاح الدين على أعدائه ، فلما سمعوا بنبأ الانتصار العظيم، تهللت وجوههم فرحاً، وتساقطت دموعهم من شدة الفرح،

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٨٩ . وانظر ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٧٧. وانظر العماد الأصفهاني ـ الفتح القسي ـ ص ٢٣.

(٣) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٩٤.

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٧٨ ـ ٧٩. وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨

وقـد جـاء بنص الكتاب الذي أرسله القاضي الفاضل من دمشق الى صلاح الدين ما يدل على ذلك « ليـهن المولى أن الله قـد أقـام به الدين القيم ، وأنه كما قيل أصبحت مـولاي ومـولى كل مـسلم ..... الرؤوس الى الآن لم ترفـع من سجـودها والدموع لم تمـســح مـن خـدودها ..... وللألسنـة بعـد هـذا الفـتـح شـرح طـويل وقـول جليل..... »(1) .

(1) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٨٢ ـ ٨٣.

٤ ـ فتح مدن الساحل

بعد أن منَّ الله على صلاح الدين الأيوبي بالنصر المظفر على الصليبيين في معركة حطين الخالدة ، والتي كانت بمثابة «مفتاح الفتوح الإسلامية» (١) في المنطقة، أراد تتويج جهاده العظيم بتحرير المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها ، إلا أنه لم يتوجه نحو مدينة بيت المقدس مباشرة ، وإنما اختار التوجه نحو الساحل لفتح المدن والحصون والقلاع الصليبية المنتشرة هناك وذلك لعدة أسباب منها :-

١ ـ أن قيامه بالهجوم مباشرة على المدينة المقدسة سيؤدي الى استنفار كافة القوات الصليبية في المنطقة ، فتجتمع في حربها ضده مما قد يصعب ويؤخر عملية التحرير.

٢ ـ أن فتح المدينة من قبل صلاح الدين قد يحدث قلقاً شديداً لدى العالم الغربي الذي ربما يؤدي الى اندفاعه بكل قواه لمحاربته (٢) .

٣ ـ كذلك لعلمه بقوة التحصين التي فرضها الصليبيون على هذه المدينة داخل الأسوار وخارجها.

٤ ـ أراد بتوجهه نحو مدن الساحل أن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وبخاصة الغرب الأوروبي ، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام (٣) .

٥ ـ كما أنه أراد أيضاً تسهيل الاتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة على الساحل المصري وبين تلك الموانىء المنتشرة في الساحل الشامي (٤) .

لذلك كله قام صلاح الدين بالتوجه الى المواقع الصليبية المنتشرة على الساحل ضمن خطة تكفل استنزاف قواتهم وتمنع وصول الإمدادات إليهم من أوروبا.

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٨٨.

(٢) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ـ ص ٣٠٥.

(٣) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٨١٣.

(٤) See: Stevenson, The Crusaders in the East, P 249.

في يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/ ٥ تموز ١١٨٧م نزل صلاح الدين على طبرية، واستولى على قلعتها، وأقام بها الى يوم الثلاثاء يرتب أمورها، ثم ولاها لصارم الدين قايماز النجمي (١) .

وفي يوم الأربعاء ٨ تموز ١١٨٧م تقدم صلاح الدين نحو عكا (٢) ، وما أن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وخيرهم بين الإقامة والرحيل، فاختاروا الرحيل، فدخلها الجيش الأيوبي يوم الجمعة ٢ جمادى الأولى ٥٨٣ هـ (٣)، واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر وأطلقوا سراح من كان بها من الأسرى المسلمين، وكانوا أربعة آلاف دون أن يلحقوا أذى بأهل البلد ، او بالتجار البنادقة والبيازنة (٤) ، فكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين معهم فوائد كثيرة، حيث ساهمت في تسهيل مهمة فتح المدن الصليبية دون مقاومة كبيرة نتيجة لما حدث في عكا. كما حافظت سياسته تلك على استمرار الحياة الاقتصادية في المدينة بعد ما لمسه التجار الغربيون من عدله وسماحته.

أقام صلاح الدين في مدينة عكا لفترة من الوقت ، حيث اتخذها مركزا لانطلاق جيوشه لفتح المعاقل القريبة مثل الناصرة ، قيسارية ، حيفا ، صفورية ، الشقيف، الفولة، الطور وغيرها من البلاد المجاورة (٥) ، حيث استولى عليها.

ثم جرى الاستيلاء على مدينة نابلس، وتم اقرار أهالي البلدة على أموالهم وأملاكهم لأنهم كانوا مسلمين ، وقد مكثوا في المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها (٦) .

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٧٩. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ١٩٦.

(٢) عكا: مدينة واسعة كثيرة الضياع، ولها مرسى مأمون حيث ترسو عنده السفن المسافرة الى أطراف القدس، وعن طريقها يرد الحجاج الغربيون الى بيت المقدس.

(٣) ينفرد ابن شداد بالقول أن صلاح الدين دخل عكا بعد أن قاتلها، انظر النوادر السلطانية ـ ص ٧٩.

(٤) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين ـ ص ٢٩٧.

(٥) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٢٠٢.

(٦) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٨٧ ـ ٨٨. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٢٠٢ـ٢٠٣.

كما تم فتح كل من صيدا وبيروت ومنطقة جبيل (١) ، وقرر صلاح الدين أن يكون فتح مدينة صور بعد فتح بيت المقدس، ولذلك أراد التوجه نحو عسقلان لأن أمرها أيسر (٢) ، ولأنها تقع في ملتقى الطرق بين بلاد الشام ومصر (٣) . وفي طريقه الى عسقلان استولى على الرملة وحصن تبنين وبيت لحم والخليل ، واستسلمت له عسقلان في رجب سنة ٥٨٣هـ / أيلول سنة ١١٨٧م (٤) . كما فتح مدن غزة، والداروم، وارسوف (٥)، واللطرون، وبيت جبريل ، كما زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا ، وبذلك سقطت المدن والحصون الداخلية ما عدا الشوبك والكرك اللتان بقيتا على المقاومة .

وهكذا دخل الساحل برمته تحت إمرة صلاح الدين ، من بيروت الى يافا ما عدا مدينة صور التي دخلها المركيز «كونراد دي مونتفرات» في ذلك الوقت ، وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال ، فشرع بتحصين المدينة ، وتجديد حفر الخندق استعدادا لملاقاة صلاح الدين (٦) ، وخصوصاً وأن الجيوش الصليبية التي خرجت من مدن الساحل قد تجمعت جميعها في مدينة صور ، بعد أن ترك لها صلاح الدين حرية الاختيار بين الرحيل الى بيت المقدس أو مدينة صور ، فقصد معظمهم صور .

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨٠.

(٣) See: Lanepool, Saladin, P 223.

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨٠ ـ ٨١.

(٥) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٦) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين

أ ـ حصار بيت المقدس على يد صلاح الدين

بعد أن تمكن صلاح الدين من فتح مدن الساحل والحصون الصليبية في فلسطين، ولم يبق في الساحل «من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور» (١) ، وقد تمكن بهذه الفتوحات من تدمير قوات الصليبيين والتأكد من عدم وصول قوات أو امدادات صليبية جديدة من البحار، أراد صلاح الدين أن يعبىء كل قواه قبل التقدم نحو بيت المقدس . فلما اجتمعت عليه عساكره التي كانت متفرقة في الساحل والمناطق المختلفة ، توجه صلاح الدين بقواته نحو المدينة المقدسة .

وصل صلاح الدين ظاهر المدينة يوم الأحد ١٥ رجب ٥٨٣هـ / ٢٠ أيلول ١١٨٧م ، ونزل الجانب الغربي منها (٢) ، فأخذت جيوشه مواقعها على مشارف المدينة وفرض حصاراً عليها.

بقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يبدأ القتال لأنها في غاية الحصانة والامتناع، ولم يجد موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب العمود ، فانتقل الى هذه الناحية في يوم الجمعة ٢٠ رجب ٥٨٣هـ (٣) / ٢٦ أيلول ١١٨٧م وأقام الأبراج في مواجهتها ، ونصب المجانيق، وفي تلك الليلة بدأ بمهاجمة الأسوار حتى تمكن جيشه من الاقتراب كثيراً من سور المدينة ، ونقبوه عند باب العمود، وقام قتال عنيف بين الفريقين ومات فيه خلق كثير من الجانبين (٤) .

لما رأى الصليبيون شدة بأس المسلمين في هجومهم ، وأصابهم اليأس من تحقيق الانتصار عليهم ، أرسلوا رسلهم الى صلاح الدين ، يعرضون عليه تسليم

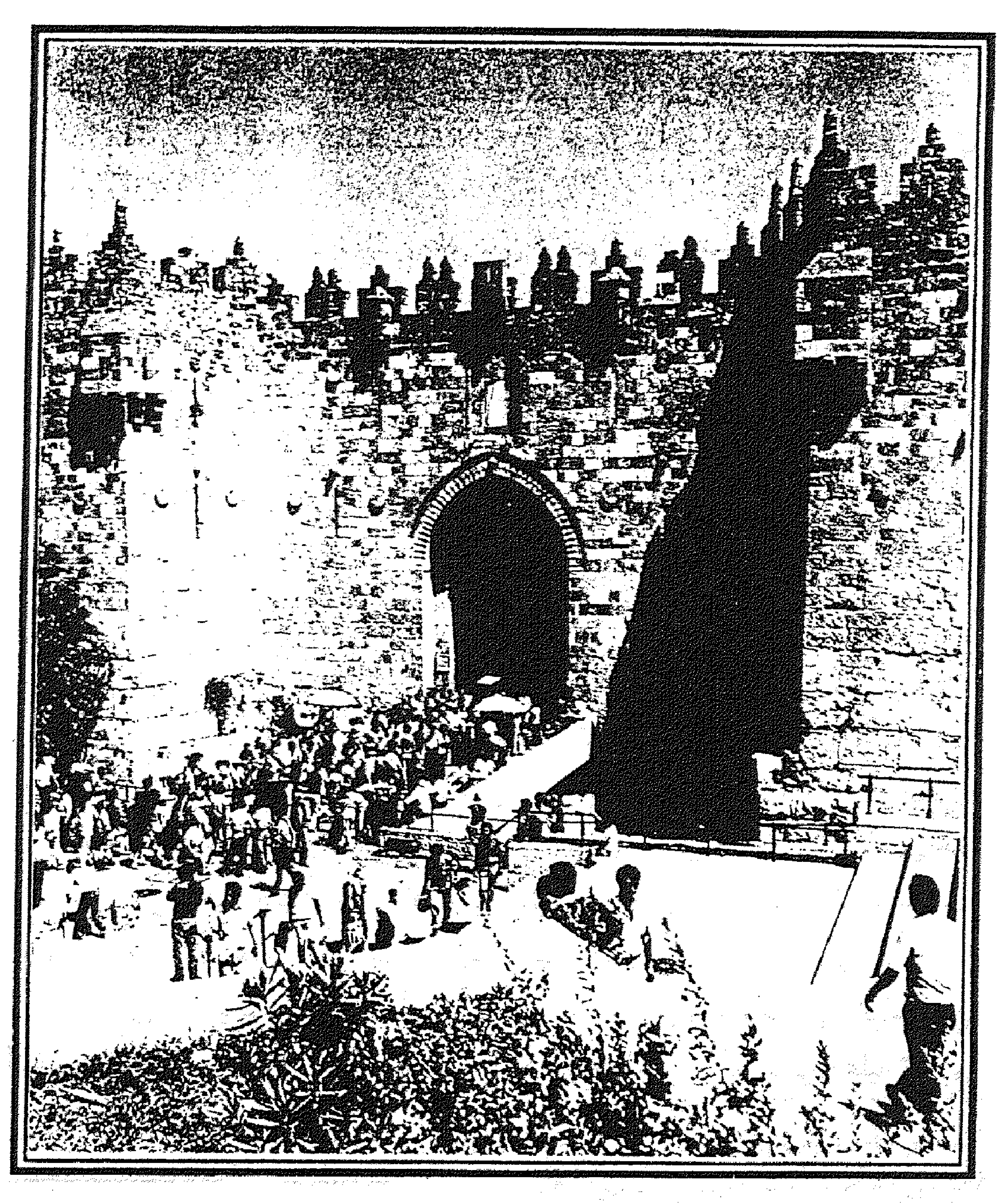
---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٩١.

(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨١.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥٤٧.

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨١.



باب العمود

المدينة مقابل منحهم الأمان ، فرفض صلاح الدين ذلك في بادىء الأمر ، ثم عادوا فأرسلوا قائدهم « باليان دي إيلين » وهو أحد قادتهم المشهورين ، وكان يتكلم العربية ، لمفاوضة صلاح الدين على تسليم المدينة ، بشروط العفو والأمان التي منحها الى جميع المواقع الصليبية التي سلّمت إليه ، لكن صلاح الدين لم يجبه الى طلبه ، بل صمم على فتحها بالسيف قائلاً له « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها » (١) .

عند سماع باليان لذلك الرد، اضطر الى الكشف عن خطته قائلا: «إذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً ولا درهماً ، ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة . فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا نقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذٍ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء . . . . أو نظفر كراما » (٢) . ثم ناشده باليان قائلا «امنحنا الأمان نسلمك المدينة دون أن يمسها أحد من الطرفين بسوء».

جمع صلاح الدين الأمراء والقادة ورجال الرأي، واتفق المؤتمرون على أن تسلّم المدينة صلحاً ، على أن يرحل منها الفرنج اللاتين غير العرب، وذلك خلال أربعين يوماً، ويحملوا معهم جميع نفائسهم وأموالهم في نظير فدية يدفعونها، قدرها عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وديناران لكل طفل (٣) ، أما الفقراء والشيوخ من الرجال والنساء فقد تقرر اعفاؤهم من الدفع (٤) .

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٥٤٨ .
(٢) ابن الأثير ـ الكامل ـ ج ١١ ، ص ٥٤٨ـ٥٤٩ .
(٣) ابن الأثير ـ الكامل ـ ج ١١ ، ص ٥٤٩ .
(٤) See: Runciman; A History of the Crusades, P 109 .

ب ـ الفتح العظيم لبيت المقدس

في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ (١) الموافق ٢ تشرين الأول سنة ١١٨٧م ، وفي يوم ذكرى ليلة الاسراء والمعراج الشريفين، عاش العرب والمسلمون أمجد أيام تاريخهم عندما وقّع ملوك وأمراء وقادة الصليبيين على اتفاقية تسليم المدينة المقدسة الى البطل الفاتح صلاح الدين الأيوبي، والرحيل عنها مقابل الأمان.

في ذلك اليوم المجيد تدفقت جموع العرب والمسلمين الى البطل الفاتح صلاح الدين، تقدم له التهاني على النصر المجيد ، الذي أعاد به للأمة شرفها ، وغسل فيه عارها، وبذات اليوم بدأت جحافل الصليبيين المهزومين بالرحيل مكسورة ذليلة من باب داود، يتقدمهم هرقل بطريرك اللاتين، الذي خرج حاملا معه ما استطاع حمله من الذهب والفضة (٢) ، ولم يدفع غير عشرة دنانير . ولما أشار العماد الكاتب الى ما حمله البطريرك من التحف والجواهر والمصوغات الذهبية والفضية التي نزعها من كنيسة القيامة، والتي لا ينطبق عليها الاتفاق، أراد صلاح الدين أن يلقن الصليبيين درسا في التسامح والسخاء بأن رد قائلا : «نحن نجيبهم على ظاهر الأمان ونغريهم بذكر محاسن الإيمان» .

وبعد أن منَّ الله على المسلمين بدخول بيت المقدس انتشر جنود صلاح الدين في شوارع المدينة وأحيائها يحفظون الأمن والنظام، كما رفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة .

كان أول عمل قام به صلاح الدين أن ذهب الى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وأزال ما بهما من آثار نصرانية ، من نقوش وصلبان مرسومة على جدران الصخرة الداخلية ، وغسل الصخرة المشرفة بماء الورد (٣) .

وفي يوم الجمعة الثانية لفتح المدينة المقدسة وكان ذلك في ٤ شعبان ٥٨٣هـ (٤)

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١ ، ص ٥٤٩ . وانظر ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨٢.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ص ٥٥١ .

(٣) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨٢.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل ـ ج ١١ ، ص ٥٥١ .

الموافق ٩ تشرين الاول ١١٨٧م، أقيمت في المسجد الأقصى أول صلاة للجمعة بعد هذا الاحتلال الطويل، وعلا على المآذن صوت التكبير والتهليل ، بحضور صلاح الدين الأيوبي وجميع الأجناد والعلماء والمسلمين الذين كانوا في المدينة، فتقدم صلاح الدين من الإمام القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي القرشي، وطلب منه أن يخطب أول خطبة لأول صلاة الجمعة تقام في المسجد الأقصى بعد فتح بيت المقدس ، كما ألبسه العماد الكاتب جبة سوداء من تشاريف الخلافة العباسية (١) .
وفيما يلي أذكر بعض ما جاء في تلك الخطبة:

«...... فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين صدق الله العظيم.... أيها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها الى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها من أيدي المشركين قريبا من مائة عام....... وهو (أي بيت المقدس) موطن أبيكم ابراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء........ وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه...... جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية..... أليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟....... فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروبتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى...... وإياكم أن يستذلكم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيّل إليكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد وبجلادكم في موضع الجلاد ، والله ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، ...... واحذروا ـ عباد الله ـ بعد أن شرّفكم الله بهذا الفتح الجليل أن تأتوا عظيماً من

---

(١) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ١١٠ .

معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ..... والجهاد الجهاد، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، أنصروا الله ينصركم..... جدوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله....... واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هذه فرصة فانتهزوها ومهمة فاخرجوا اليها هممكم وابرزوها ..... ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ صدق الله العظيم.......» (١) .

مكث صلاح الدين في مدينة بيت المقدس ثمانية وعشرين يوماً ، كان خلالها قد أعاد للمدينة وجهها الإسلامي، ثم خرج منها في ٢٥ شعبان ٥٨٣هـ/ ٣ تشرين الثاني ١١٨٧م قاصداً صور لفرض حصار شديد عليها من البر والبحر (٢) .

ولما أدرك صلاح الدين قوة تحصين المدينة ، وزّع أمراءه العسكريين على الجهات المختلفة من السور ، كما قسّم العسكر إلى ثلاثة أقسام بحيث يكون لكل قسم منه وقت معلوم لقتال الأعداء حتى يستمر القتال ، ويكل الأعداء ، فيضطرون الى التسليم (٣) . غير أن صلاح الدين لم يتمكن من فتحها ورحل عنها الى عكا (٤) .

وبعد أقل من عام على خروج الصليبيين مهزومين من المدينة المقدسة، حاولوا أن يغدروا بصلاح الدين ، ففي ليلة من شهر شوّال من عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م قام الصليبيون بمهاجمة قلعة «كوكبة» المطلة على مدينة طبرية ، والتي كان صلاح الدين قد فتحها قبل فتح بيت المقدس ، وسلّمها للأمير سيف الدين ، فتمكنت القوات الصليبية التي تدفقت على القلعة الحصينة من كل جانب من اقتحامها وقتل كل من فيها (٥) .

---

(١) انظر نص الخطبة كاملة في تاريخ الروضتين لأبي شامة ـ ج ٢، ص ١١٠ـ١٢٠ . وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٢١٨ ـ ٢٢٨ .
(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨٣.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١١، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ .
(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٨٤.
(٥) ابن الأثير ـ الكامل ـ ج ١١، ص ٥٥٨ .

ولما جاء الخبر لصلاح الدين عظم عليه الأمر كثيراً ، فولّى على إدارة مدينة بيت المقدس أحد أمرائه الأمير «حسام الدين ساروج التركي» (١) وتوجه ومعه أخوه العادل ، من القدس الى قلعة كوكبة التي عاود الصليبيون تحويلها الى حصن منيع ، فقاتل قواتها أشد قتال ، وبقي صلاح الدين ملازماً الحصن بالرمي حتى تهدم معظم بنائه ، وبذلك تمكنت قواته من الاستيلاء على الحصن واخراج الفرنجة منه وغنم أموالهم وسلاحهم.

وبعد أن ولىّ عليها «قايماز النجمي» أحد رجاله الأشداء ، تحول الى أرض بيسان ثم سار ومعه أخوه العادل الى القدس ، وصلى في الصخرة ونحر الأضحية شكراً لله على نصره (٢) .

وبفتح المسلمين لمدينة بيت المقدس ، أصبحت معظم المدن في شمال الشام في أيديهم ، ولم يبق من مملكة بيت المقدس في أيدي الصليبيين غير مدينة صور وبعض القلاع ، التي لم يتمكن صلاح الدين من فتحها ، حيث كان رجاله قد أصابهم التعب بعد الحروب الطويلة .

---

(١) عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس ـ ص ١٧٧ .

(٢) مجير الدين الحنبلي ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ ج ١، ص ٣١٦.

الفصل السادس

صلاح الدين
والحملة الصليبية الثالثة على بلاد العرب

الحملة الصليبية الثالثة
على بلاد العرب

١ ـ حصار عكا :

على أثر الهزيمة الساحقة التي مُني بها الصليبيون في معركة حطين، وما أعقبها من سقوط للمدن والحاميات والممالك الصليبية في بلاد الشام ، وعلى رأسها مدينة بيت المقدس بأيدي المسلمين ، خرج القساوسة والرهبان من بلاد الشام الى دول العالم الغربي، يدعونه لمحاربة المسلمين وإعادة بيت المقدس الى النصارى (١).

كان أول من دعى للحملة الصليبية الجديدة هو رئيس أساقفة مدينة صور، الذي خرج موفداً من قبل المركيز «كونراد دي مونتفرات» الى الغرب الأوروبي في أواخر صيف سنة ١١٨٧م (٢) . وعلى أثر هذه الدعوة أرسل البابا غريروري الثامن الكتب والرسائل الى كل من امبراطور المانيا وملك انكلترا وملك فرنسا ، دعاهم فيها الى تناسي خلافاتهم ومشاكلهم، والعمل على تعبئة قواتهم لمحاربة صلاح الدين .

وبالرغم من كثرة الخلافات بين الدول الغربية وخاصة بين دولتي انكلترا وفرنسا ، إلا أنهما تناسيا أحقادهما ، واتفقا على وجوب الذهاب للشرق الإسلامي لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، واقتسام كل ما يصل الى أيديهما من غنائم . ومن أجل تحقيق هدفهم عمدوا الى إثارة روح العداء لدى مواطنيهم ضد المسلمين، مما دفع الكثير من الرجال والنساء للتطوع للحرب أو تقديم ما لديهم من الأموال لمساندة هذه الحملة الجديدة.

وهكذا تشكلت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة كل من فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا.

---

(١) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد الشام ومصر ـ ص ٣١٩. نقلاً عن: (Grousset, op.cit, P 747).

(٢) دريد نوري ـ المرجع السابق ـ ص ٣١٩.

صادف في ذلك الوقت أن خرج الملك غي دي لوزنيان من سجنه الذي كان قد أسر فيه بعد معركة حطين ، وذلك بعد أن أمر صلاح الدين بالإفراج عنه، لما قطعه على نفسه من عهد بألا يشهر في وجه صلاح الدين سيفاً أبداً ، وأن يكون غلامه ومملوكه طليقاً أبداً (١) .

توجه غي دي لوزنيان الى مدينة صور ليستقر بها بعد سقوط مملكته بيت المقدس في أيدي المسلمين ، لكن أمير صور المركيز «كونراد دي مونتفرات» لم يسمح له بالدخول الى المدينة خوفا من أطماعه، لذلك عمد غي دي لوزنيان الى تجميع أكبر عدد من القوات الصليبية تحت لوائه ، في محاولة لاستعادة مدينة عكا لاتخاذها مركزاً جديداً له ، حتى قيل أنه تمكن من جمع ما يقرب من (٢٠) ألف مقاتل (٢) ، وسار بهم نحو عكا حتى اصطفت قواته على مشارف المدينة في رجب سنة ٥٨٥هـ / آب ١١٨٩م وحاصرها براً وبحراً (٣) .

ورد خبر حصار مدينة عكا الى مسامع صلاح الدين، فأقام مستكشفاً للحال عدة أيام (٤) ، حتى تيقن من صدق الخبر ، فسارع الى استدعاء العساكر إليه وكان مخيما على «شقيف أرنون» (٥) ، ومن ثم توجه بجيوشه حتى عسكر بالقرب من مدينة عكا وعلى مقربة من جموع الصليبيين (٦) .

أخذ صلاح الدين يعمل على مهاجمة القوات الصليبية في سبيل فك الحصار عن المدينة ، إلا أن مرضاً أصابه مما اضطره الى ترك الدفاع عن المدينة للاستشفاء ، مما ترك المجال أمام الصليبيين لتحصين مواقعهم ، بحفر خندق حول معسكرهم من البحر الى البحر ، ونصبوا آلات الحرب والحصار ، مما قطع الطريق على جيوش

---

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١٥٣ . وانظر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٢ ، ص ١٩ـ٢٠ .

(٢) See: Lanepool, A History of Egypt, P 251 .

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٢ ، ص ٣٢ـ٣٥ .

(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١٥٤ .

(٥) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ـ ص ٣٢١ .

(٦) See: Lanepool, A History of Egypt, P 259 .

المسلمين من الوصول الى المدينة (١) .

أدرك صلاح الدين خطورة الموقف ، فأرسل طالباً النجدة من الخليفة العباسي، والأمراء الأراتقة وأمراء المغرب العربي (٢) . كما قام بنفسه بتجنيد كافة القوى الشامية والمصرية البرية والبحرية منها، فقد قدم الأسطول المصري الى سواحل عكا، وأخذ رجاله يعملون جاهدين على مد سكان عكا بما يحتاجون إليه من العدد والزاد.

في تلك الأوقات والظروف الحرجة لكلا الطرفين ، بدأت تصل جحافل الصليبيين الى بلاد الشام وسواحلها ، فكان أول من تقدم نحو الشرق هو الامبراطور الألماني « فريدريك بربروسا » في أيار سنة ١١٨٩م ، ومعه ما يقرب من (١٠٠) ألف محارب، متخذاً طريق البر عبر القسطنطينية، إلا أنه تعرض لمتاعب جمة خلال مسيره، منها وقوف البيزنطيين ضده بسبب تحالفهم مع صلاح الدين، ونتيجة للأضرار التي ألحقها الألمان بالأراضي البيزنطية وايذائهم لفلاحيها . إضافة الى ذلك صعوبة ووعورة الطريق وقلة الماء والزاد، وهجمات التركمان على القوات الألمانية في آسيا الصغرى (٣) .

كل ذلك أدى الى فشل الحملة الألمانية ، ولم يصل من رجالها الى عكا للمشاركة في حصارها إلا القليل منهم ، وكان ذلك في شعبان سنة ٥٨٦هـ / أوائل تشرين الأول سنة ١١٩٠م (٤) ، بعد أن توفي قائدها الامبراطور ووقوع الخلافات بين أتباعه.

وفي ٢٣ ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ / نيسان ١١٩١م وصل الى سواحل عكا ملك فرنسا «فيليب أوغسطس» (٥) الذي تمكن من توحيد كافة القوى الصليبية تحت

---

(١) د. أمينة البيطار ـ تاريخ العصر الأيوبي ـ ص ١٥٣ .

(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ١٧٠ ـ ١٧٣ .

(٣) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١١٥ و ١٢٣ ـ ١٢٨ . وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ١٥٠ و ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٢، ص ٤٨ ـ ٥١ .

(٥) الأصفهاني ـ الفتح القسي ـ ص ٢٣٠ . وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ١٨٢ .

إمـرته، وفي ١٣ جمادى الأولى سنة ٥٨٧هـ/ حزيران ١١٩١م وصل عن طريق البحر أيضـاً ملك انكلترا ريتـشـارد قلب الأسـد ، الذي تمكن وهو في طريقـه الى السـواحل الشـامية من فتح جزيرة قبرص والاستيلاء عليها (١) .

منذ وصـول الملك ريتـشـارد الى السـواحل الشـامـيـة لمساندة القوات الصليبية المحـاصرة لمدينة عكا، بدأت مـوازين القوى تتغير لصالح الصليبيين، وخصوصا وأن جـزيرة قبرص أصبـحت من المراكـز الهامـة لمد القـوات الصليـبـية في الشرق بالعدد وآلات الحـرب والحصار (٢) .

استـمر ضغط الصليبيين على المدينة المحاصرة حتى سقطت بأيديهم يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ / ١٢ تموز ١١٩١م (٣) . بعد أن شهـدت بطـولات عـربية عظيمة سجلها التاريخ ، لمدة تزيد عن العامين في مقاومة الحصار المستمر من كـافة القوى الغربية من برية وبحرية ، وهو الحصار الذي أدى الى ضعف ونقص في عدد المدافعين عن المدينة، بسبب عدم تمكن القوات الإسلامية من ايصال الإمدادات إليهم، في حين كانت تصل الإمدادات الى القوات الصليبية تباعاً من البحر، مما دفع بأهالي المدينة الى طلب الأمان من الصليبيين (٤) ، وسُلمت المدينة بعـد أن تم التوقيع على اتفـاقـيـة بين الصليـبـيين وأهل عكا ، تفـيد بالسماح لحاميتها بالخروج سالمة من المدينـة مـقـابل فدية قدرهـا مائتـا ألـف دينـار ، وتحـرير ألفين وخمسمائة من أسرى الصليـبيين، فضلا عن رد صليب الصلبوت (٥) .

لكن دخـول الصليبيين الى مدينـة عكا ، أثار موجـة من الحـزن والأسى لدى كـافـة المسلمين ، وخـصـوصاً وأن الصليبيين غدروا بوعدهم، ونقضوا شروط التسليم «فأسروا من فـيها من المسلمين وكانوا ألوفاً» (٦) .

---

(١) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ـ ص ٣٢٩ .
(٢) د. سـعيد عاشور ـ قبرص والحروب الصليبية ـ ص ٢٩ ـ ٣٠ .
(٣) ابن شـداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١٧١ ـ ١٧٢ . وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج٢، ص ١٨٤ ـ ١٨٩ .
(٤) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٢ ، ص ٦٦ ـ ٦٨ .
(٥) ابن واصل ـ مـفـرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٥٩ـ٣٦٠ . وانظر ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
(٦) المقـريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١ ، ص ١٠٥ .

ولم يكتف الصليبيون بأسر أهالي المدينة ، بل أمر الملك ريتشارد بأن يساق جميع الأسرى الى جنوب «تل العياضية» ، وهناك أمر بذبحهم جميعاً ، ولم ينج منهم إلا بعض الأمراء ليفتدي بهم الملك ريتشارد بعض الأسرى الصليبيين (١) . وكانت المذبحة عظيمة لدرجة أن جميع المؤرخين الشرقيين منهم والغربيين استنكروها.

ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الملكين فيليب أوغسطس والملك ريتشارد من أجل عكا وإمارتها ، وعلى أثر ذلك الخلاف انسحب الملك فيليب الفرنسي الى مدينة صور في تموز ١١٩١م ومنها عاد الى بلاده ، وبذلك تزعم ريتشارد الحملة الصليبية الثالثة في منطقة الشام (٢) .

---

(١) See: Lanepool, Saladin, P 306.

(٢) See: Stevenson, The Crusaders in the East, P 274.

٢ ـ احتلال الساحل الفلسطيني :

بعد الانتصار الذي حققه الصليبيون على المسلمين بدخولهم مدينة عكا ، قويت عزيمتهم ، فأراد الملك ريتشارد أن يتبع ذلك الانتصار باسترداد الساحل الفلسطيني، الذي فتحه صلاح الدين من عكا حتى عسقلان ، ومن ثم التوجه الى الداخل (١) .

في أوائل آب عام ١١٩١م بدأ الملك ريتشارد زحفه بمحاذاة ساحل البحر، وكانت تساندة السفن الحربية في البحر ، ولما علم صلاح الدين بهذه التحركات الصليبية، عبأ قواته العسكرية وسار في أعقاب الصليبيين في محاولة منه لمنع تقدمهم نحو الساحل (٢). لكن على الرغم من هجمات القوات الإسلامية على مؤخرة الجيش الصليبي . إلا أن ريتشارد تمكن من الاستيلاء على مدينة حيفا، التي أخلتها حاميتها الإسلامية، ثم استأنف الصليبيون زحفهم نحو قيسارية، واستولوا عليها مخرّبة تماماً في رجب سنة ٥٨٧هـ / نهاية آب ١١٩١م ، ثم اتجهوا الى أرسوف وهناك طلب ريتشارد الاجتماع بالملك العادل ، وعرض عليه عقد صلح بين الطرفين شريطة أن يعاد الساحل الفلسطيني الى الصليبيين ، فرفض العادل ، وهكذا عاود الطرفان القتال (٣) .

انتصر الصليبيون على قوات صلاح الدين في موقعة «أرسوف» في ١٤ شعبان سنة ٥٨٧هـ / أيلول من عام ١١٩١م (٤) . وكان لانتصارهم هذا في أرسوف نتائج عميقة الأثر ، حيث بعث لدى الصليبيين الشعور بالثقة من جديد، بعد الهزائم التي توالت عليهم بعد معركة حطين .

بعد موقعة أرسوف رحل صلاح الدين الى الرملة ، واجتمعت عليه العساكر الإسلامية ، فتداول مع أخيه وكبار الأمراء في الخطة الواجب اتباعها ، فأشير على

---

(١) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٨٤١.

(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١٧٥ . وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٣) ابن شداد ـ المرجع السابق ـ ص ١٧٦ .

(٤) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٦٦ـ٣٦٧.

صـلاح الدين بإخراب مدينة عسقلان ، خوفاً من أن يدخلها الصليبيون ، ويفعلون بأهلهـا كما فـعلوا بأهل عكا، لكن صلاح الدين عارض في إخرابها وقال: «والله لأن أفـقـد أولادي كلهم أحـب إلّي من أن أهـدم منها حجـراً واحـداً ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع ؟ » (١) .

وهكذا للمـوقـع الهـام الـذي تتميز به المدينـة لوقوعهـا على الطريـق بين مصر وبلاد الشام من ناحية ، وفي سبيل المصلحة العامة للمسلمين من ناحية أخرى، أمر صـلاح الدين بالإسراع بهدم أسـوار المدينة وتخريبها، قبل أن يسمع الصليبيون بالخبر فيـتـقـدمون اليها، فلا يتمكنون من إتمام خرابها فيستولون عليها «وهي عامرة فيأخذ (ريتشارد) بها القدس وينتطع بها طريق مصر» (٢) . هذا وقد استمر تخريب البلد الى نهاية شهر شعبان (٣) .

بعـد تخريب عسقلان سار صـلاح الدين نحـو الرملة ، فوصلها في ٣ رمضان سنة ٥٨٧هـ وأمـر بتخريب حصنها ، ثم خرج منها الى مدينة بيت المقدس للإشراف على الدفاع عنها، لعلمه أنها غاية الصليبيين ومقصدهم.

وفي نهاية شـهر تشرين الأول من عام ١١٩١م تحركت جيوش الملك ريتشارد، من يافا الى اللطرون في طريقهم الى بيت المقدس (٤) . ولما علم صـلاح الدين بمسير ريتـشارد نحو حصن اللطرون، أسرع في التقدم نحو الحصن وأمر بتخريبه فهدم (٥).

---

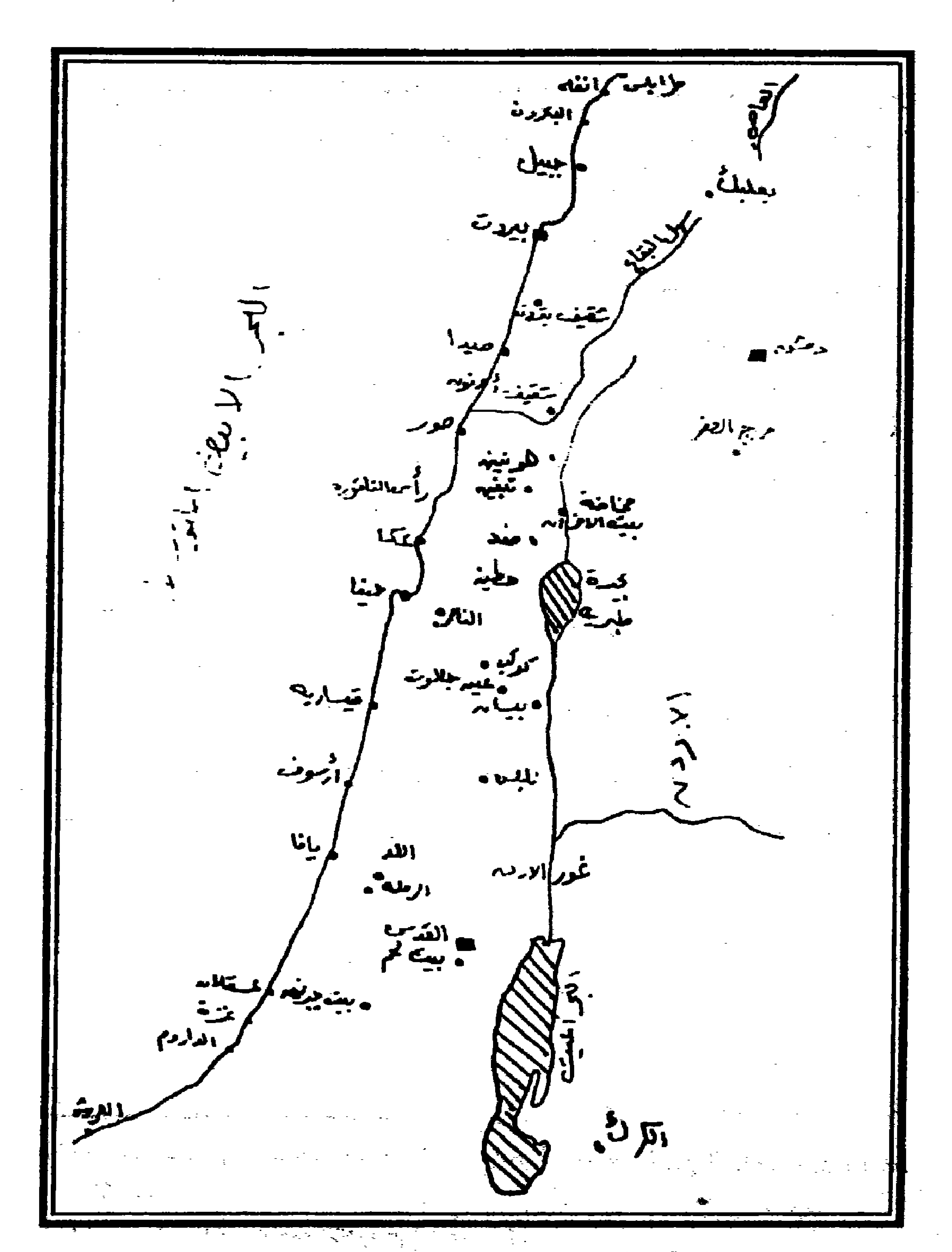
(١) ابن شـداد ـ النوادر السلطانيـة ـ ص ١٨٦ . وانظر أبو شـامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ١٩٢ .

(٢) ابن تغـري بردى ـ النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٤٦ .

(٣) المقـريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ق ١، ج ١ ص ١٠٦ .

(٤) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٨٤٤.

(٥) ابن شـداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١٩٠ .



ساحل بلاد الشام

٣ ـ المحاولة في استعادة بيت المقدس :

أدرك صلاح الدين أن الغاية المنشودة في مسير ريتشارد نحو حصن اللطرون هو استرداد بيت المقدس، فكتب الى جميع الأطراف يطلب منهم الإسراع بإرسال العساكر إليه (١) ، كما سارع في العمل على تقوية استحكامات المدينة المقدسة، وإعدادها للدفاع بقوة، وذلك بإعادة بناء وتعمير أسوار المدينة، وحفر الخنادق من حولها (٢) . وكان صلاح الدين يشارك بنفسه ومعه أولاده وأجناده والقضاة والعلماء والفقهاء في تجديد سور المدينة ، حتى اطمأن الى قوة تحصينها ، كما عمد الى إفساد المياه الموجودة في ظاهر القدس، بحيث لم يبق حول المدينة ما يشرب أصلاً (٣) . كما أخذ صلاح الدين يعمل من أجل رفع الروح المعنوية للمقاتلين ودفعهم للقتال بحزم وقوة، عن طريق تذكيرهم باليوم الآخر والجهاد في سبيل الله.

هذا وقد أمر القاضي بهاء الدين ابن شداد بتجميع العساكر قرب الصخرة في الحرم الشريف ، وطلب منهم مبايعة صلاح الدين على الموت في لقاء الأعداء كما بايع الصحابة النبي محمد (ﷺ) (٤) ، وبينما كان ابن شداد ينتظر الجواب من العساكر، خرج صلاح الدين إليهم وألقى فيهم كلمة مؤثرة جاء فيها « الحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم . فان لويتم أعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » (٥) .

تأثر الجيش الأيوبي كثيراً بكلمة قائدهم صلاح الدين ، فقام سيف الدين

---

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢١٠ـ٢١١. وانظر أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ١٩٧.

(٢) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ١٠٧.

(٣) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ١٩٨. وانظر ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٨٥.

(٤) دريد نوري ـ سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ـ ص ٣٥٠.

(٥) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢١٦.

المشطوب وقال في بعض ما قاله : « والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت » (١) . فقام صلاح الدين بتعيين الأمراء ، وتسليمهم مهمة الدفاع عن أبراج سور المدينة وحمايتها (٢) .

وفي اليوم التالي لاجتماع كلمة الأمراء في مساندة صلاح الدين ، أرسل الأمير أبو الهيجا بكتاب الى صلاح الدين ، يبلغه فيه رفض الأمراء الدفاع عن المدينة من الداخل، خوفاً مما قد يحدث لهم كما حدث لأهالي عكا (٢) ، واقترحوا عليه مواجهة العدو في سهول الجليل الواسعة التي تسمح للعسكر بالتحرك (٣) .

في ذلك الوقت تمكن ريتشارد من احتلال اللطرون ، فملأ الفرح قلوب الصليبيين لاقترابهم من المدينة المقدسة ، إلا أن ريتشارد عارض بشدة حصار مدينة بيت المقدس لعلمه بقوة تحصينها ، هذا بالإضافة الى الطقس الحار الذي كان شديداً في ذلك الوقت من السنة ، وكذلك بسبب البدو والعربان الذين أخذوا يغيرون على مؤخرة الجيش الصليبي، ويقطعون عليه خطوط مواصلاته وإمداداته (٤)، ومن أجل ذلك كله دعا الملك ريتشارد الى عقد المفاوضات مع المسلمين وناب فيها الملك العادل عن أخيه صلاح الدين (٥) .

وعلى الرغم من فشل المفاوضات بين الطرفين أرسل ريتشارد الى صلاح الدين بكتاب جاء فيه «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب، والقدس متعبدنا، ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمن السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم» (٦) .

وكان رد صلاح الدين «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو

---

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢١٦ .
(٢) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٨٤٥.
(٣) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٧٨.
(٤) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .
(٥) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٨٤٦.
(٦) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، أما البلاد فهي لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة الى الإسلام هي أوفى منها» (١) .

في تلك الفترة أصبح الملك ريتشارد الزعيم الأوحد للصليبيين، وخصوصاً بعد مقتل المركيز «كونراد دي مونتفرات» في ١٣ ربيع الآخر من عام ٥٨٨هـ (٢) ، وانضمام أتباعه لقوات ريتشارد الصليبية.

ونتيجة لفشل المفاوضات بين الصليبيين والمسلمين ، قرر الصليبيون المسير نحو المدينة المقدسة لتخليصها من أيدي المسلمين ، في حين كان صلاح الدين قد أنهى استعداداته للدفاع عن المدينة، وقد اجتمعت عليه العساكر من مختلف الأطراف والنواحي لمساندته في دفاعه عن بيت المقدس . لكن في صبيحة يوم السبت الموافق ٢١ جمادى الثاني / ٤ تموز ١١٩٢م، وردت الأخبار الطيبة الى مسامع صلاح الدين تفيد بأن الصليبيين مختلفون فيما بينهم (٣) ، وأنهم قرروا الرحيل عن المدينة دون مهاجمتها، وتم انسحابهم الى مدينة الرملة في أواخر تموز من عام ١١٩٢م.

---

(١) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٣٧٣.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ١٢، ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٣) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢١٧.

٤ ـ صلح الرملة :

في أواخر تموز من عام ١١٩٢م أتم الصليبيون انسحابهم من أمام أسوار بيت المقدس الى مدينة الرملة ، بعد فشلهم في الإتفاق على مهاجمة المدينة والإستيلاء عليها. ومن هناك من مدينة الرملة بعثوا الرسل الى صلاح الدين طلباً للصلح معه، ومع أن صلاح الدين كان كارها لعقد مثل هذا الصلح مع الصليبيين، إلا أنه وجد نفسه بحكم الظروف المحيطة به مرغما عليه ، وقد أسر الى صديقه وجليسه القاضي ابن شداد بقوله له :

« متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ، فاني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج، والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت » (١) . ويعلق ابن شداد قائلا : « هذا كان رأيه وانما غُلب على الصلح » .

وفي ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م تم صلح الرملة (٢)، بين الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا وبين السلطان صلاح الدين ، وقد نص الصلح على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، أما عسقلان فتكون للمسلمين، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين (٣) .

أما بخصوص الأماكن المقدسة المسيحية ، فقد نصّت الاتفاقية على أن يكون للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة، كما أعلن صلاح الدين في الوقت نفسه «أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل» (٤) . أما مدّة الصلح فقد أتفق على أن تكون ثلاث سنوات وثلاثة أشهر (٥) .

---

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢٠٣.
(٢) الأصفهاني ـ الفتح القسي ـ ص ٣٤٣.
(٣) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ ج ٢، ص ٤٠٣.
(٤) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ١١٠.
(٥) اجتمعت عليه مختلف المصادر .

قوبل صلح الرملة بارتياح شديد من قبل المسلمين والمسيحيين على السواء ، وبهذا الصلح انتهت سلسلة الحروب الطويلة بين صلاح الدين والصليبيين على أرض فلسطين ، بعد أن دمَّرت البلاد وخرَّبت وكلفت المتحاربين الأموال والأرواح.

يقول المؤرخ العربي المقريزي «كان يوم الصلح يوما مشهوداً عمَّ فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب» (١) .

بعد الصلح أخذ النشاط يدبُّ في مدينة بيت المقدس من جديد ، حيث يقول المؤرخ العربي أبو شامة عن الموقف غداة صلح الرملة : ـــ

«اختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة ووصل خلق عظيم العدد الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب لذلك ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا» (٢) .

وفي ٩ تشرين الاول عام ١١٩٢م ركب ريتشارد قلب الأسد البحر في طريقه عائداً الى الغرب الأوروبي (٣) .

وهكذا كان الاختلاف كبيراً بين مملكة الصليبين في فلسطين وعاصمتها بيت المقدس، حيث كانت تمتد من شرقي الأردن الى البحر الأحمر ثم الى البحر الأبيض المتوسط، لتشمل الساحل الشامي بأكمله ، وبين مملكة تمتد على الشريط الساحلي لفلسطين فقط وعاصمتها عكا.

وتجمع مختلف المصادر التاريخية على أن هذه المملكة ولدت هزيلة، حيث تحول الصليبيون فيها من مرحلة الهجوم الى الدفاع ، إضافة الى أن التجار الايطاليين الذين احتفظوا بمراكز قوية لهم في موانيء فلسطين ، صارت لهم كلمة نافذة في توجيه سياسة المملكة الصليبية في عكا (٤) ، مما جعل طابعها تجارياً واقتصادياً أكثر مما هو طابع سياسي وحربي، واستمر حكمهم في تلك المملكة مائة عام أخرى .

---

(١) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١، ص ١١٠.

(٢) أبو شامة ـ تاريخ الروضتين ـ ج ٢، ص ٢٩٣.

(٣) د. سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ـ ج ٢، ص ٨٦٤.

(٤) الموسوعة الفلسطينية ـ ج ٣، ص ٢٤٦.

أما صلاح الدين وبعد توقيعه على صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، ولّى الأمير «عز الدين جورديك» على مدينة بيت المقدس (١)، ورحل عنها الى دمشق التي كان يحبها كثيراً ، ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد (٢)، وظلّ مقيماً فيها إلى أن توفي في شهر آذار من سنة ١١٩٣م ، ودفن في قلعتها ، ثم نقل رفاته الى شمال الجامع الأموي في دمشق، وكان عمره سبعاً وخمسين سنة، وترك من الأولاد سبعة عشر ذكراً وبنتاً واحدة صغيرة. ولم يخلف في خزانته سوى سبعة وأربعين درهماً .

(١) عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس ـ ص ١٧٧ .
(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢٤١ .

٥ ـ سياسة صلاح الدين في صلح الرملة

قضى صلاح الدين إحدى وثلاثين سنة من عمره وهو على ظهر فرسه يجاهد في سبيل الله والوطن، فمنذ أن كان في سن السادسة والعشرين من عمره، يوم اختاره نور الدين محمود زنكي ليرافق جيشه الى مصر، ظل يجاهد ويحارب الأعداء حتى آخر أيامه، قاد خلالها قرابة خمس وسبعين معركة خسر بعضها، ولكنه ربح معظمها، فصار الجهاد جزءاً منه بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله.

يقول رفيقه وجليسه ابن شداد «كان الرجل إذا أراد التقرب إليه (أي صلاح الدين) يحثه على الجهاد أو يذكر شيئا من أخبار الجهاد، وقد أُلف له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً . . . . . وكثيراً ما كان يطالعه» (١) .

فكان للجهاد عند صلاح الدين معنى واحد وهو إعلاء كلمة الحق باسترداد التراب المسلم من أيدي الغاصبين، وليس القتال والاقتتال مع الصليبيين.

ولم يكن جهاد صلاح الدين مقتصراً على محاربة الفرنجة، وإنما أيضاً مجاهدة المسلمين الرافضين للتعاون معه في محاربة أعداء الأمة، وهم الخائفون على إماراتهم ومصالحهم، فكان يحاربهم تارة، ويتسامح معهم تارة أخرى، وذلك في سبيل الوصول الى ما يبتغيه من تأمين ظهره من ناحية، ولضمان ولاء الأمراء وجندهم له من ناحية أخرى. لأن الأمراء هم الذين كانوا يرتبطون مع صلاح الدين وليس الجند، والسبب في ذلك أن النظام العسكري الإسلامي الذي كان سائداً في ذلك الوقت ولقرون خلت، كان يقوم أساساً على ولاء العسكر في كل بلد لأميرهم الذي يعطيهم ويمدهم بالأرزاق، ولما لم يكن الأمراء من السعة ورغد العيش، بحيث يحتفظون بجيش كبير محترف، هذا فضلاً على أنهم كانوا يحاربون في الأجواء الملائمة ما بين الربيع والخريف، ليعودوا لإقطاعاتهم وبلدانهم في الشتاء، لذا فإن الأمراء كانوا يبقون على ولائهم لصلاح الدين ما داموا يربحون من الكسب والغنائم وبخاصة التركمان منهم.

---

(١) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢١.

ولما استمرت الحروب بين صلاح الدين وفرنجة الحملة الصليبية الثالثة ، لمدة تزيد عن الثلاث سنوات متتالية ، بدأت القلاقل داخل جيشه ولدى الأمراء الموالين له، فلما لاحت فرصة المهادنة والسلام مع الفرنجة، وجد صلاح الدين نفسه بحكم الظروف المحيطة به مرغماً عليه، «فمنذ قرون لم يسبق لأمير من أمراء المسلمين أن جابه مشكلة الإبقاء على جيش في الميدان بصورة متواصلة لمدة ثلاث سنوات وضد عدو نشيط ومغامر . . . . » (١) ، كما فعل صلاح الدين بالصمود مع جيشه أمام الفرنجة طيلة هذه السنوات.

وهكذا كانت سياسة القائد صلاح الدين الأيوبي في قبوله صلح الرملة هو الاحتفاظ مرحلياً بما فتحه من الأراضي واسترده ، وحصر الأعداء في أضيق منطقة ساحلية ممكنة ، مع منعهم من التوسع في الأراضي ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، في انتظار فرصة مواتية أخرى لاسترداد الباقي ، حيث لم يكن لديه سبيل آخر بعد ما قاله له المحاربون «فانظر الى أحوال البلاد فإنها خرّبت . . . . . والأجناد فإنها تعبت . . . . والجياد فإنها عطلت وقد أعوزت العلوفات . . . . وهؤلاء الفرنج إذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنفاذ المنة . . . . . والصواب أن تقبل من الله الآية الكريمة التي أنزلها ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ (٢) صدق الله العظيم ، وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها وتكثر في مدة الهدنة غلاتها وأثمارها. . . . . . فإذا عادت أيام الحرب عدنا وقد استظهرنا وزدنا» (٣) .

لذلك كله عقد صلاح الدين مع الفرنجة صلح الرملة وهو يضع نصب عينيه بعض الأمور الهامة منها : ـ

١ ـ أنه رأى في تلك الهدنة مصلحة للمسلمين حيث أصابهم الضعف والوهن بعد كثرة الحروب ، وقلة الموارد ، وشوق المجاهدين الى أوطانهم وعوائلهم.

---

(١) صلاح الدين ـ دروسات في التاريخ الإسلامي ـ تحرير يوسف إيبش ـ ص ١٩٩ .
(٢) أنظر سورة الأنفال ٨/٦١.
(٣) العماد الأصفهاني ـ الفتح القسي ـ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦ .

٢ ـ أنه ساوم الفرنجة على الأرض المحتلة شبراً شبراً حتى اللحظة الأخيرة.

٣ ـ أنه ترك الفرنجة في المنخفضات الساحلية، بحيث لا يكون لهم شأن في المناطق الجبلية والمرتفعة.

وكان الأهم عند صلاح الدين أنه كان يرى هذا الصلح هدنة بينه وبين أعدائه الصليبيين ليس أكثر ، حيث حرص على تحديد موعده بثلاث سنوات وثلاثة أشهر من تاريخ إبرامه في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ/ ٢ ايلول ١١٩٢م.

وهكذا اقتنع صلاح الدين بالصلح على أنه فترة راحة واستجمام الى حين ، وليس استسلاماً للأمر الواقع والى أبد الآبدين .

الفصل السابع

آثار صلاح الدين ومؤسساته في القدس

آثار صالح الدين ومؤسساته
في بيت المقدس

يقول المؤرخ المقدسي الدكتور كامل العسلي «عندما فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس سنة ١١٨٧م ، كانت المدينة قد فقدت طابعها العربي الإسلامي إلى حد بعيد ، بعد ٨٨ عاما من الاحتلال الصليبي ، فالمسلمون من سكان المدينة كانوا قد ذبحوا سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وحظر من بعد ذلك على المسلمين الإقامة في المدينة . وبإبادة المسلمين لم يعد هناك في المدينة بالطبع مؤسسات إسلامية ، من أي نوع. حتى المسجدان الكبيران قبة الصخرة والمسجد الأقصى، حولا الى كنائس أو منازل للفرسان الاسبتارية أو أهراء لأسلحتهم واسطبلات لخيولهم. . . . . . وكانت مهمة صلاح الدين الأولى في القدس عقب الفتح مهمة ذات شقين : إعادة الطابع العربي الإسلامي الى المدينة ، وفي الوقت نفسه الدفاع عن المدينة إزاء محاولات الصليبيين إعادة الاحتلال» (١) .

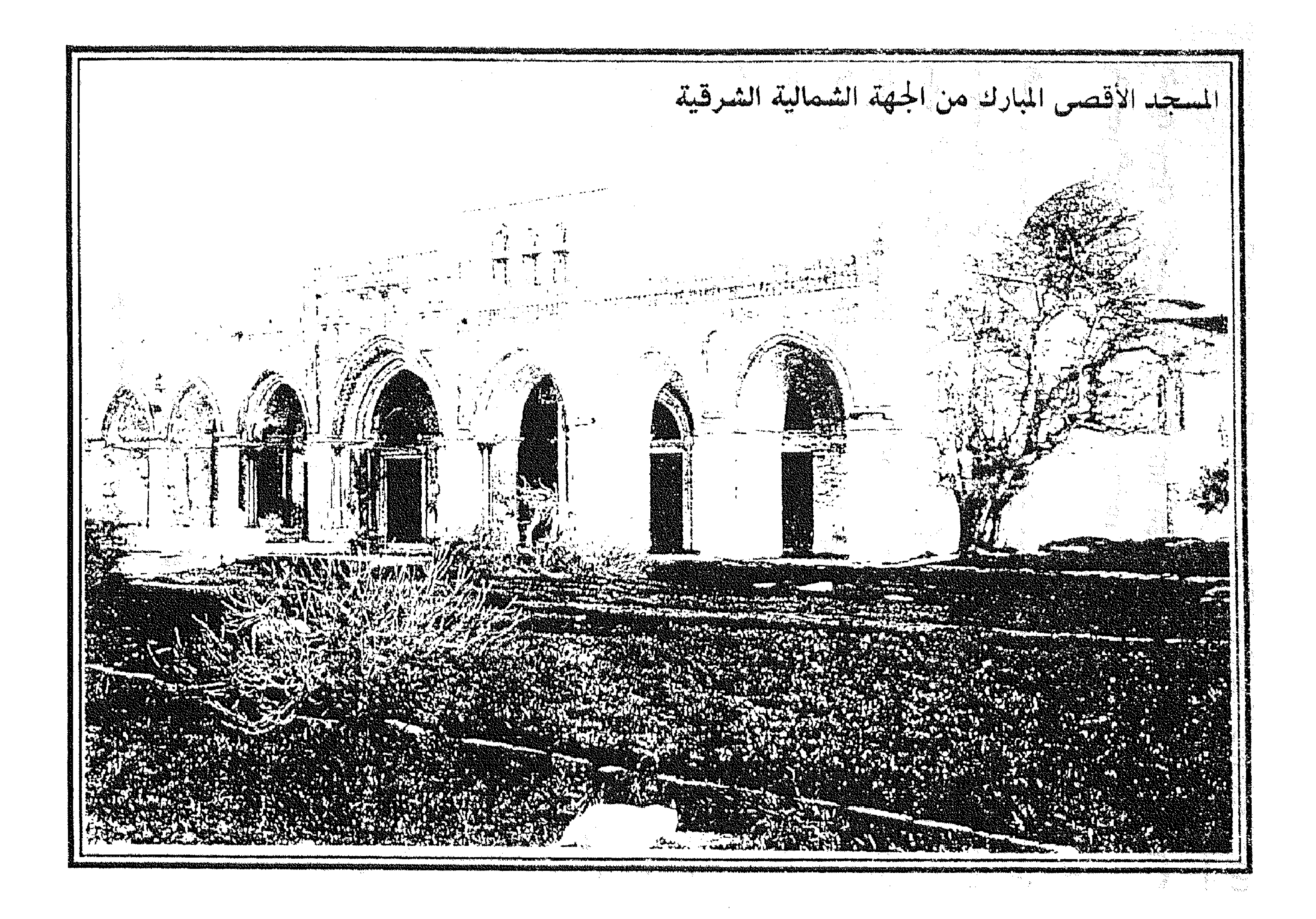
ففي سبيل إعادة الطابع العربي الإسلامي الى المدينة كان أول عمل قام به صلاح الدين بعد فتحها مباشرة، أن بادر الى إعادة القدسية لأهم معلمين إسلاميين لا في القدس وحدها وإنما في العالم أجمع ، وهما قبة الصخرة والمسجد الأقصى التي إنتهك الصليبيون المحتلون حرمتها وقدسيتها. كما سعى الى إعادة السكان المسلمين الى المدينة وإسكان عدد من القبائل العربية فيها، فقد حدثنا المؤرخ المقدسي عارف العارف أن صلاح الدين أسكن قبيلة بني حارث خارج المدينة قرب قلعة داود ، وأسكن بني مرة شمالي غربي المدينة، كما أسكن بني سعد في حارة السعدية ، وبني زيد قرب باب العمود (٢) .

وأما في سبيل الدفاع عن المدينة، فكانت من أوائل الأعمال التي اهتم بها صلاح الدين هو تحصين المدينة، وتمثل ذلك في حفر خندق عميق، وإنشاء وتعمير

---

(١) عن مقال للدكتور كامل العسلي في كتاب يوم القدس، سنة ١٩٨٩، ص ٧٦.
(٢) عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس ـ ص ١٧٦ .

المسجد الأقصى المبارك من الجهة الشمالية الشرقية



سور المدينة ، وإقامة أبراج حربية عليه من باب العمود حتى باب الخليل ، وأنفق على ذلك أموالاً كثيرة. ويذكر لنا المؤرخون أن صلاح الدين كان يحمل الأحجار بنفسه ويشارك العمال في البناء والتعمير (١) .

وقبل الحديث عن المؤسسات الجديدة التي أقامها وأنشأها صلاح الدين في المدينة المقدسة، لابد من الإشارة الى أهم التعميرات التي تمت على المعلَمين المقدسين وهما المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة.

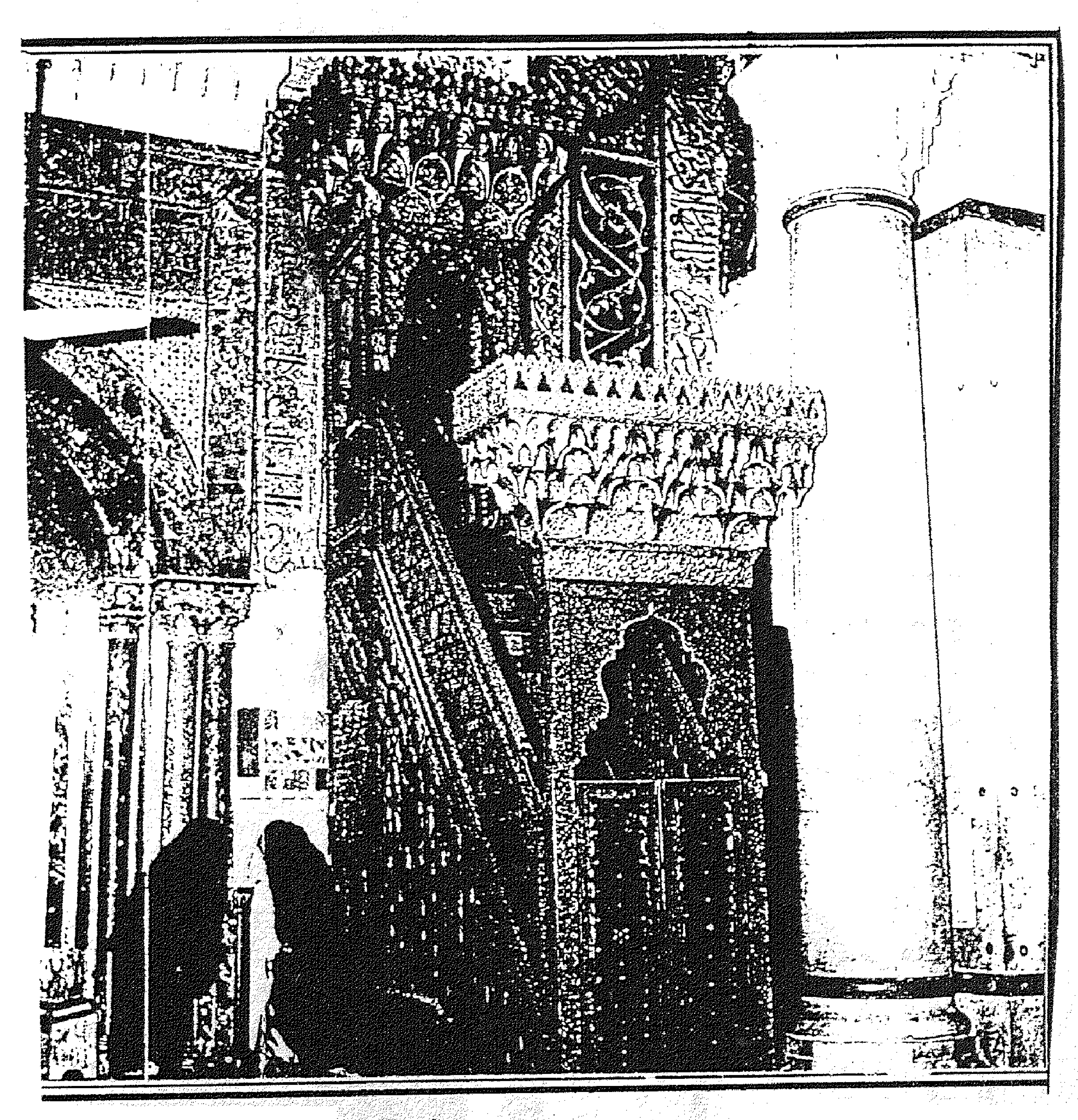
المسجد الأقصى الشريف :

كان الصليبيون قد منعوا المسلمين من أداء شعائرهم الدينية فيه ، وغيروا الكثير من معالمه، واتخذوا جانباً منه كنيسة، والجانب الآخر مسكناً لفرسان الداوية، وأضافوا إليه من الناحية الغربية بناءاً جديداً جعلوه مستودعاً لذخائرهم (٢) ، وأما السراديب القديمة التي كانت تحت المسجد فقد اتخذوها اصطبلا لخيولهم (٣) .

فلما تم لصلاح الدين تحرير الأقصى من الغزاة المحتلين ، أمر بإصلاحه وترميمه ، وإعادة البناء الى ما كان عليه قبل الاحتلال ، وكسا قبة المسجد بالفسيفساء(٤) ، كما أمر بترخيم المحراب ، وأتى بالمنبر الخشبي المرصع بالعاج والأبنوس الذي أمر نور الدين محمود بن زنكي بصنعه في حلب عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م (٥) ، ووضعه في المسجد الأقصى رمزاً للنصر ، كما أزال ما كان أحدثه فرسان الداوية والاسبتارية من تغييرات في المسجد الأقصى ، فعاد إلى ما كان عليه (٦) .

---

(١) العماد الأصفهاني ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ـ تحقيق محمد محمود صبح ـ ص ٥٦٥ ـ ٥٨١ ـ ٥٨٢ ـ ٦١٠ .
(٢) الموسوعة الفلسطينية ـ ج ٤، ص ٢٠٤.
(٣) عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس ـ ص ١٥٨
(٤) رائف نجم ـ كنوز القدس ـ ص ٢٨.
(٥) الموسوعة الفلسطينية ـ ج ٣، ص ٥٣٤.
(٦) الأصفهاني ـ الفتح القسي ـ ص ١٣٧ ـ ١٤١ .



منبر صلاح الدين الأيوبي

قبة الصخرة المشرفة :

بعد أن كان الصليبيون قد حولوها الى كنيسة أسموها (Templum Domini)، وأنشأوا على الصخرة نفسها مذبحاً ، وأقاموا حول الصخرة سياجاً من الحديد المشبك ، وكسوا الصخرة بالرخام ، ونصبوا فوقها صليباً كبيراً (١) ، سارع صلاح الدين بعد الفتح مباشرة، الى إزالة الكنيسة وبما فيها من المذبح والصور والتماثيل من داخلها، كما أمر بإزالة البناء الذي أقامه الصليبيون فوق الصخرة وأمر بقلع الصليب الكبير من فوقها (٢) ، هذا وقد رتب لها إماماً ووقف عليه داراً وأرضاً (٣) .

هذا وقد بنى القائد صلاح الدين في ساحة الحرم القدسي الشريف ، القبة المعروفة بقبة يوسف سنة ١١٩١م ، كما أمر بنقل المصاحف الحسنة الى قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، كما كان يشارك العلماء في مجالسهم فيهم (٤) . وبذلك عاد الى هاتين المؤسستين الدينيتين العريقتين نشاطهما القديم في خدمة الدين والعِلم.

بعد ذلك مضى السلطان صلاح الدين قدماً في بناء مؤسسات جديدة في المدينة في السنوات الست التي بدأت مع فتح بيت المقدس سنة ١١٨٧م وانتهت بوفاته سنة ١١٩٣م.

ومن أهم المؤسسات التي أقامها هي : ـ

١ ـ الخانقاة الصلاحية .

٢ ـ المدرسة الصلاحية .

٣ ـ البيمارستان الصلاحي .

٤ ـ كتّاب صلاح الدين .

٥ ـ الزاوية الختنية .

٦ ـ الزاوية الجراحية .

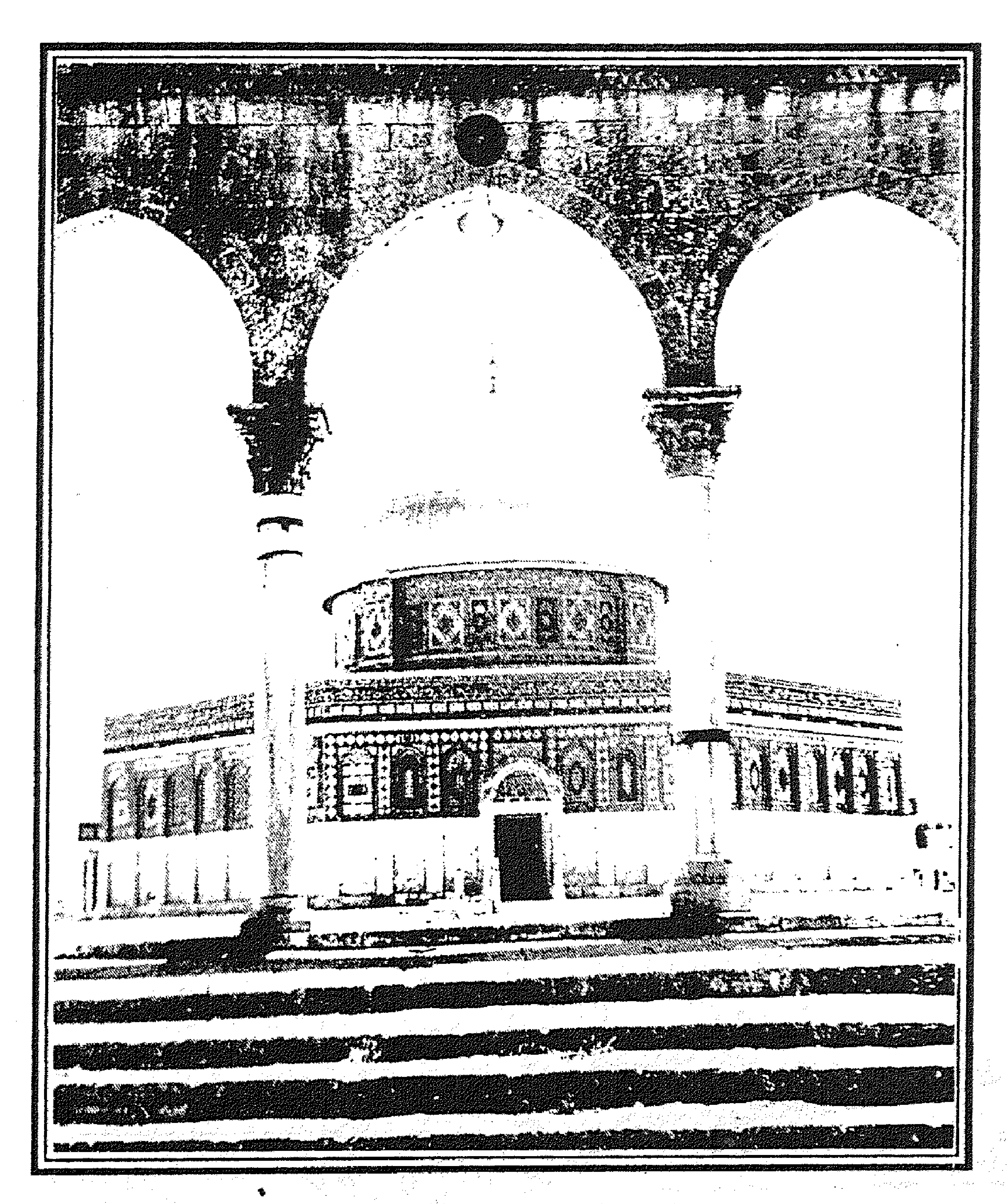
---

(١) عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس ـ ص ١٥٧ .

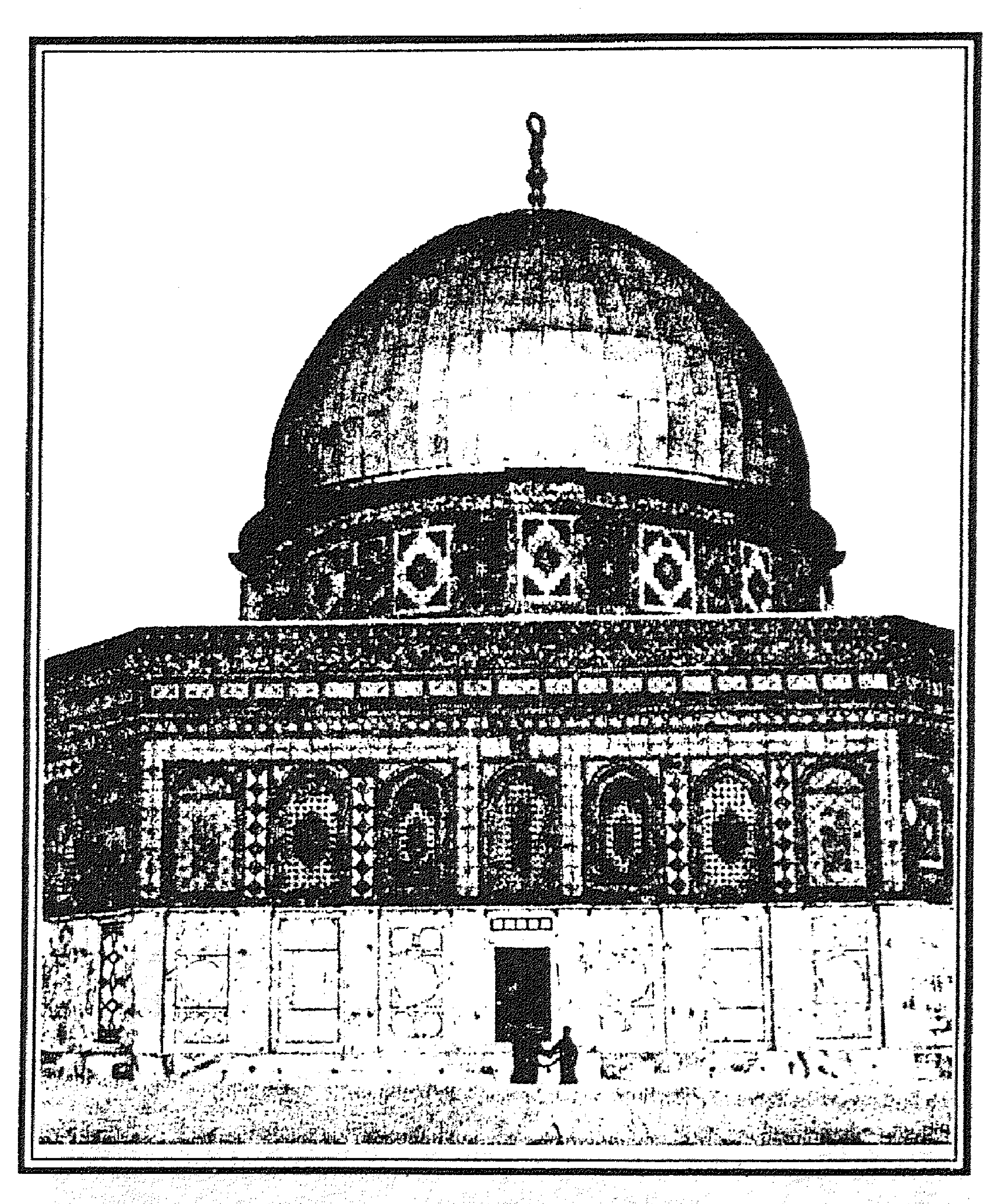
(٢) عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس ـ ص ١٧٥ .

(٣) عن مقال للدكتور كامل العسلي في كتاب يوم القدس ـ سنة ١٩٨٩ ـ ص ٧٥.

(٤) عبد اللطيف البغدادي ـ عيون الأنباء في طبقات الأعيان ـ ص ٦٨٧ ـ ٦٨٨ .



قبة الصخرة المشرفة



﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير ﴾ صدق الله العظيم

١ ـ الخانقاة الصلاحية : ـ

« الخـانقـاة : كلمـة فارسية تطلق على المباني التي كانت تقام لإيواء أهل الصوفية الذين يحلون بها للعبادة » .

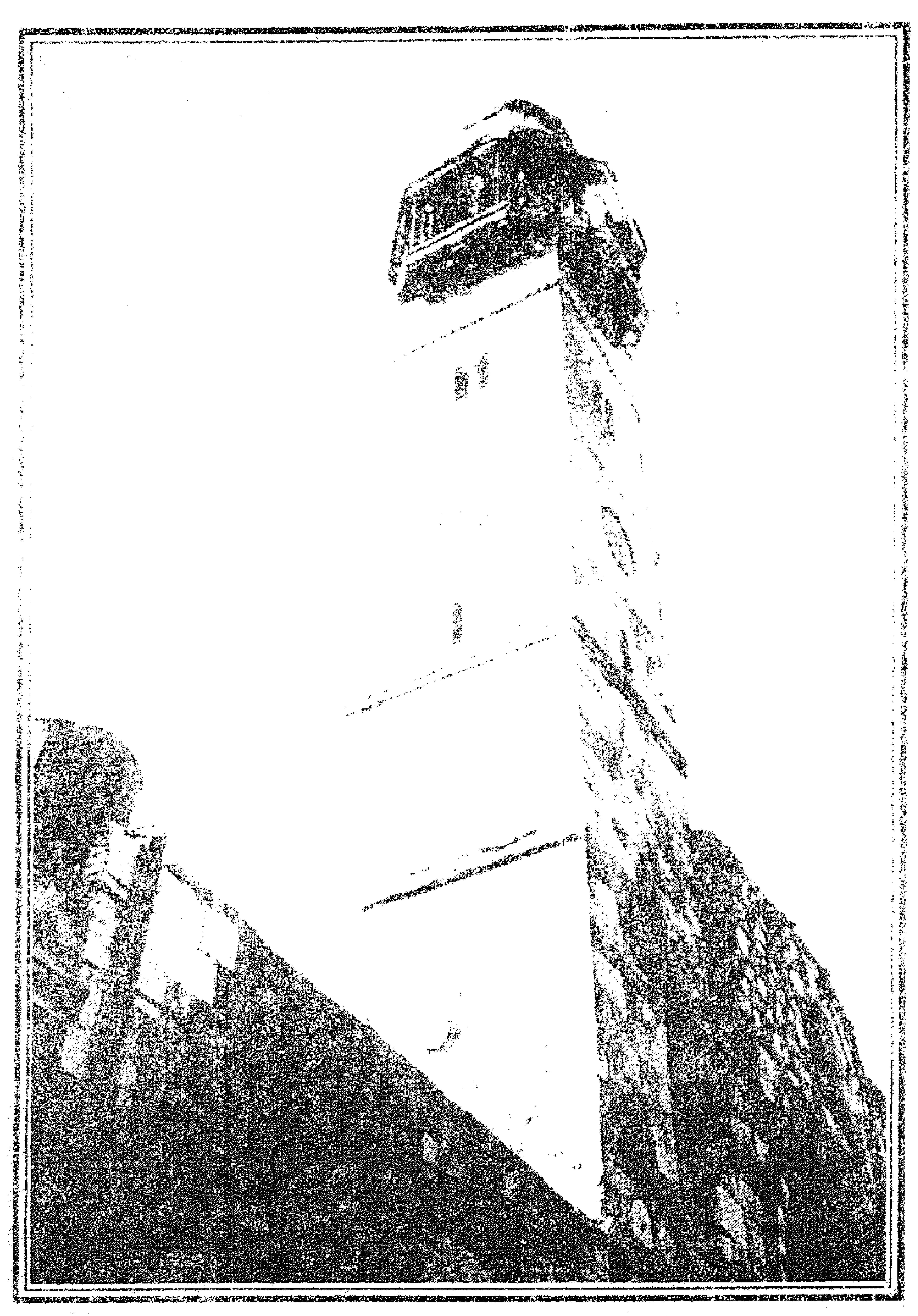
والخـانقـاة الصلاحية هي أقدم خوانق القدس المعروفة ، وصلاح الدين الأيوبي هو أول من أحـدث الخـوانق في بلادنا فلسطين، حـيث كـانت الخانقاة الصلاحية في الأصل تعـرف بـ (دار البطرك) القـريبـة من كنيسـة القيامة، لكن صلاح الدين أمر بتـحويل هذا المبنى الى خانقـاة سنـة ١١٨٧م ، إلا أن وقفية الخانقاة مؤرخة في سنـة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م (١) . هذا وقـد وقفها صلاح الدين على «السـادة المشايخ الصوفية الشـيـوخ والكهول والشبان البالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم» (٢) .

كـان من شروط السكن في الدار الاجتماع في أوقات محددة لقرأة القرآن الكريم وكـلام الأئمة الصوفية، والدعـاء للواقف المحبس المذكور (صلاح الدين) وللمسلمين أجمعين (٣) . وفي مـقابل ذلك كان أهل الصـوفية يقيمـون في الدار ويأكلـون مجاناً من ريع وقف الخـانقـاة ، وكان صلاح الدين قد وقف لها أوقافاً شاسعة للإنفاق عليها ، تضم عـدة عـقـارات في حـارة البطرك (حـارة النصارى اليوم) بما فيها طاحون وفرن ودور واسطبل والبركـة المعـروفـة حـتى يومنا هذا باسم بركـة البطرك وحوانيت مجاورة لها، وبظاهر القدس أراضي البقعة وبركة ماملا (٤) .

كـانت الخـانقاة الصلاحية من مراكز الصوفية الكبيرة في بيت المقدس، يقيمون فـيـهـا للصـلاة والإذكار ويدرسون بها، وكانت مشيختها من المناصب الدينية الرفيعة بمـدينة القـدس ، وكان شيخها يعين بمرسوم من السلطان يتلى في حفل يحضره ناظر

---

(١) الوقـفية المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس (السجل ٩٥، ص ٤٢٣) .
(٢) د. كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص ٣٣٢.
(٣) د. كامل العسلي، معاهد العلم. ص ٣٣٢.
(٤) من الوقـفية المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس (السجل ٩٥ ص ٤٢٤) .



مأذنة جامع الخانقاة ـ الصلاحية

الحرمين الشريفين ونائب السلطان والقضاة (١) . وكـان أول من تولى مشيخة الخانقاة الصـلاحية الشيخ غانم بن علي بن حسين الأنصاري الخزرجي (٢) ، وتوارث المشـيخة من بعده كثيرون من بني غانم.

ولا يزال مـبنى الخـانقـاة قـائماً حـتى يومنا هذا على بعـد أمتار قليلة من كنيسة القـيامـة ، وبوابـة الخانقـاة التي تطـل على طـريق الخانقـاة قبل التقائها بطـريق حارة النصارى بقليل ، بوابة جميلة من أجمل البوابات في مدينة القدس، أما أجزاء الخانقاة فـتتمثل في مسجد صغير بنُي حديثاً في صـدرها ، وفي الطابق الثاني يوجد إيوان كبير أمـا باقـي الأجـزاء فـهـي مسـاكن أكثرهـا خـالٍ الآن ، وبحاجـة ماسـة الى التعمير والترمـيم ، ويقـوم على أمر الخانقـاة حالياً آل العلمي كما كانـوا يفعلـون منـذ مئـات السنين (٣) .

٢ ـ المدرسة الصلاحية :

وهي أشـهـر مـدارس القدس الإسلامية وأطولها عمراً، وقد ظلت مدرسة زهاء ستة قرون من سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري الموافق الثامن عشر الميلادي (٤) .

كـان صـلاح الـدين قـد قـرر إنشـاء هـذه المدرسـة والخانقـاة سنـة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م (٥) ، لكن المدرسـة لم يتم إفـتتاحها فعلاً إلا بعد مضي خمس سنوات، وذلك كما يدل النقـش الماثل على بابها الرئيسي ، وقـد بـدأ التـدريـس فيها في تلـك السنـة أيضاً (٦) .

---

(١) مجير الدين الحنبلي ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ ج ٢، ص ٣٠٣.
(٢) مجير الدين الحنبلي ـ الأنس الجليل ـ ج ٢، ص ١٤٦ .
(٣) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم في بيت المقدس ـ ص ٣٣٥.
(٤) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم ـ ص ٥٤.
(٥) مجير الدين الحنبلي ـ الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، والأصـفـهـاني ـ الفتـح القسـي ـ ص ١٤٥.
(٦) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم ـ ص ٥٦ .

تقع مدرسة الصلاحية داخل باب سور القدس المعروف باسم باب الأسباط وعلى بعد قليل منه، شمال الطريق التي تعرف باسم طريق المجاهدين، وهي الآن دير يعرف باسم دير الصلاحية، فقد سلمها السلطان عبد المجيد العثماني الى نابليون الثالث امبراطور فرنسا سنة ١٨٥٦م (١) .

أما مشيخة الصلاحية فقد كانت من الوظائف السنية بمملكة الإسلام وشرطها أن تكون لأعلم علماء الشافعية في بلاد العرب وعلوفتها كل يوم مثقال من الذهب (٢) . كان شيخ الصلاحية يعين بتفويض من السلطان، كما كان أحد ثلاثة أشخاص يتولون السلطة الفعلية بالقدس الى جانب نائب السلطان وناظر الحرمين الشريفين. وكثيراً ما كان يعهد الى قاضي الشافعية بتولي هذا المنصب الكبير، كما كان شيخ الصلاحية كثيراً ما يجمع بين وظائف القضاء وتدريس الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى (٣) .

كان مدرسو الصلاحية من العلماء الكبار في زمانهم وذوي التآليف ، فكان منهم علماء من أهل القدس وآخرون قدموا إليها من مختلف البلدان الإسلامية ، وهكذا تعاقب على مشيختها أجلاء الشيوخ، وكان أول من تولى مشيختها القاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن تميم (٤). أما الدروس التي كانت تلقى فيها كانت تشتمل على علوم الدين ـ اللغة العربية ـ التاريخ ـ الرياضيات.

هذا وقد وضع صلاح الدين الأساس المادي لنمو المدرسة وازدهارها بالأوقاف السخية التي وقفها عليها، واشترط في وقفيته أن تكون أوقاف المدرسة على الفقهاء المشتغلين بالفقه الشافعي. ومن جملة الأوقاف التي وقفها على المدرسة قرية سلوان، وقرية القسطل، وقرية صوبا، وأرض الجسمانية، وبستان بير أيوب، و (٨١) دكاناً في سوق العطارين ، و (١٢) دكاناً بباب حطة ودكاناً بباب السلسلة

---

(١) مصطفى مراد الدباغ ـ بلادنا فلسطين ـ ج ٣، ق ٢، ص ٣٩.
(٢) مجير الدين الحنبلي ـ الأنس الجليل ـ ج ٢، ص ٤١.
(٣) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم ـ ص ٦٧.
(٤) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم ـ ص ٦٦.

وحمام باب الأسباط وفرناً بباب حطة وغير ذلك (١) .

وهكذا ظلت الصلاحية منارة علم وحضارة في بيت المقدس زهاء ستة قرون من الزمن، فكانت ذو أثر بارز كمعهد من معاهد العلم الكبيرة في العالم الإسلامي.

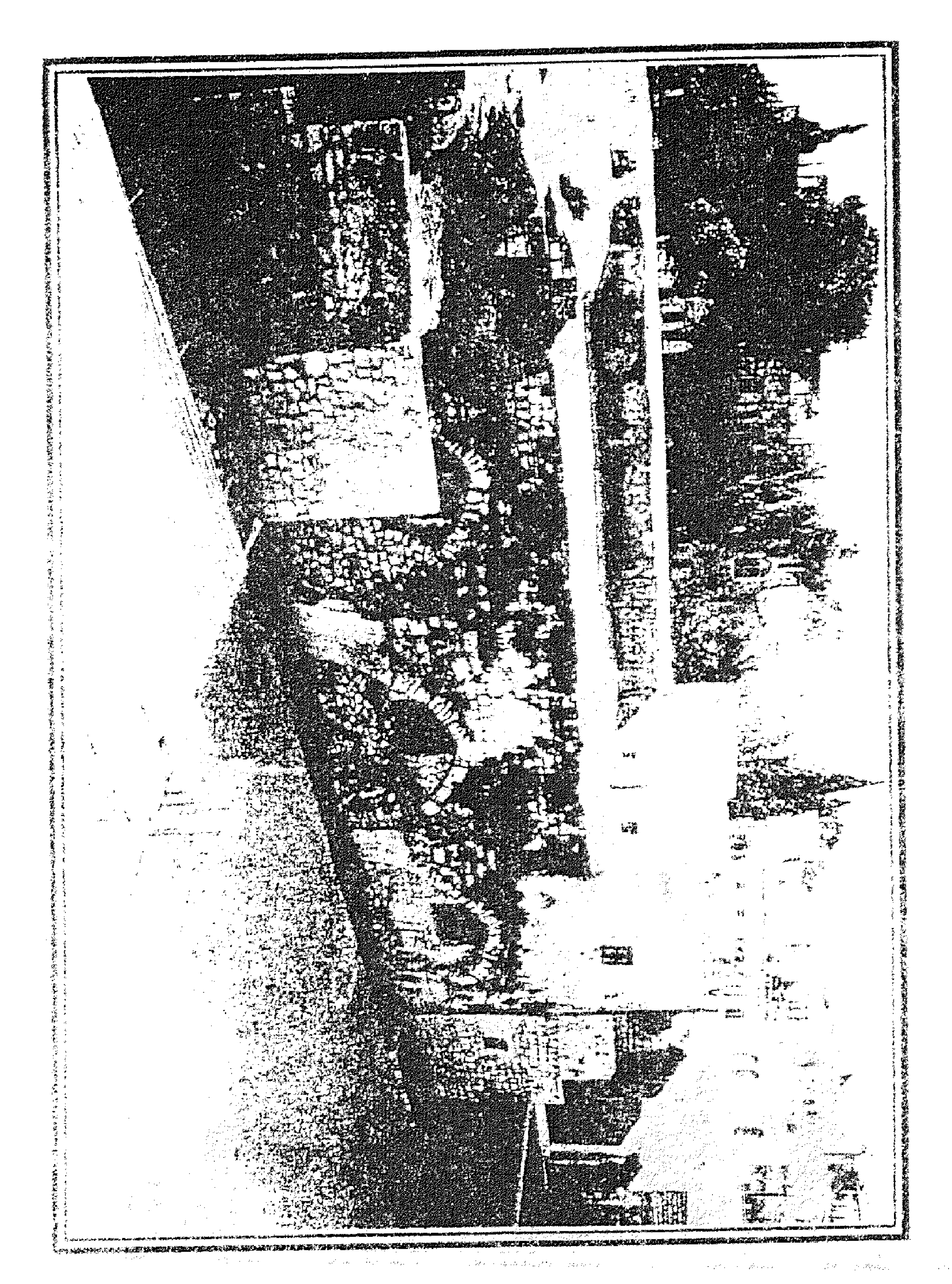
٣ ـ البيمارستان الصلاحي (المستشفى) :

قرر صلاح الدين الأيوبي إنشاء هذا المستشفى الكبير في السنة نفسها التي قرر فيها إنشاء كل من الخانقاة والمدرسة الصلاحية ، وهي سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وعهد بإدارته لبهاء الدين بن شداد الذي كان قد أسند إليه أيضاً مشيخة المدرسة الصلاحية (٢) .

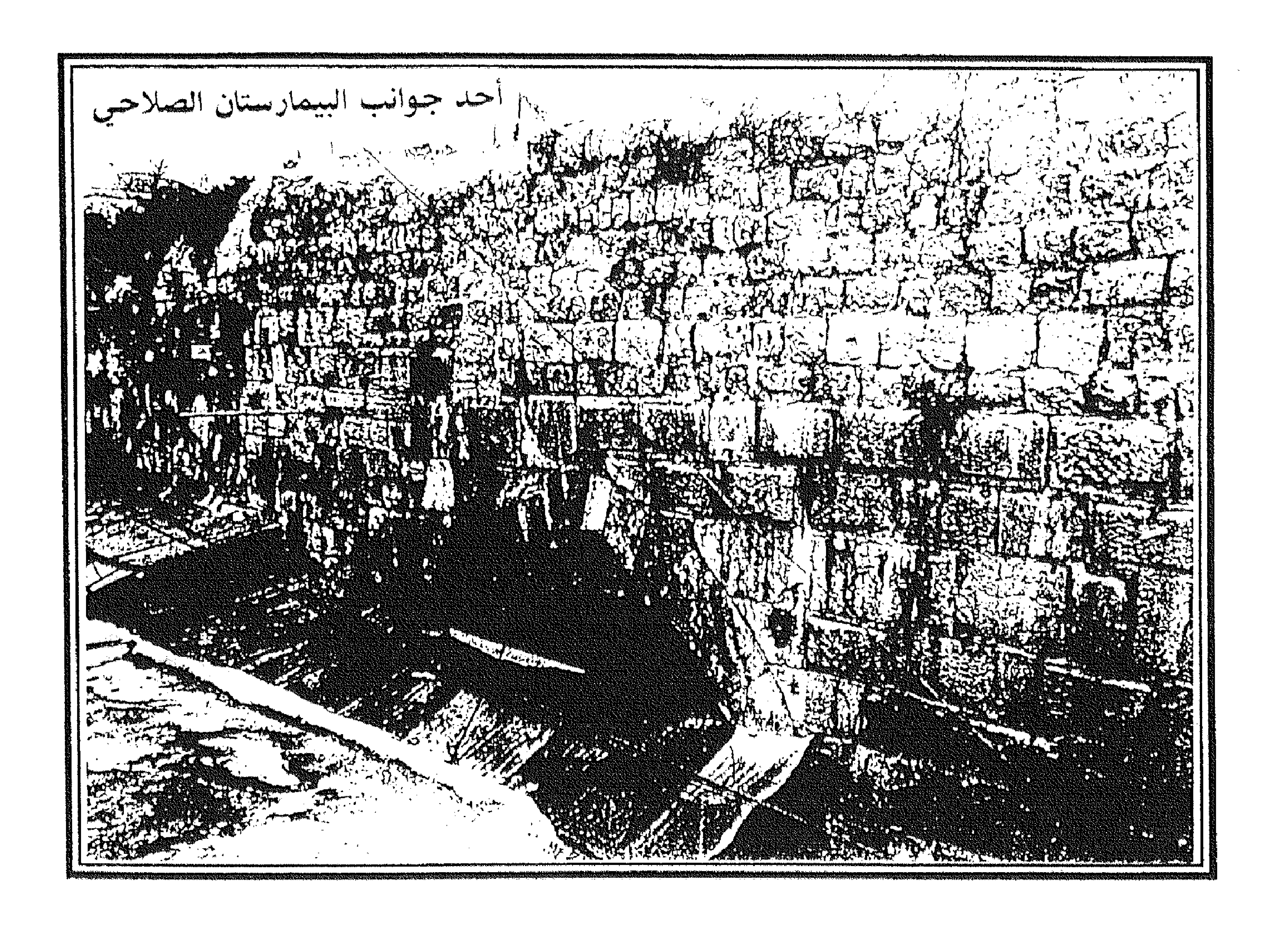
قال العماد الأصفهاني في شأن تأسيس البيمارستان «وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمارستاناً للمرضى، واتخذ فيه بيوتاً فيها حاجات أصحاب الأمراض على اختلافها تقضى، ووقف مواضع عليها وسير أدوية وعقاقير عزيزة الوجود إليها (٣) . وبالنسبة لقول العماد فإن الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار التي كان يقيم بها الفرسان الصليبيون المعروفون بالاسبتارية كانت تقع في الحي المعروف اليوم بحي الدباغة. لذا يكون البيمارستان قد تم إنشاءه في المنطقة الواقعة الى الجهة الجنوبية الشرقية من كنيسة القيامة وهي المنطقة الممتدة بين سوق البازار وسوق أفتيموس للروم الأرثوذكس وكنيسة الدباغة (٤) ، وكان البناء يغطي مساحة واسعة من الأرض وفيه العديد من البيوت أو ما يسمى الآن بالأجنحة والأقسام والتي كانت تشمل فيما تشمله قاعة للجراجين فيما كان يسمى بدار الشفاء ويشرف عليها جراح أو جراحون ، وقاعة الكحالين أي أطباء العيون ومرضاهم وقاعة للمجانين وغيره من الأقسام (٥) .

---

(١) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم ـ ص ٦٦.
(٢) ابن شداد ـ النوادر السلطانية ـ ص ٢٣٩.
(٣) الأصفهاني ـ الفتح القسي ـ ص ٦١٢.
(٤) عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس ـ ص ١٧٨.
(٥) عن مقال للدكتور كامل العسلي في كتاب يوم القدس، عام ١٩٨٩، ص ٧٩.



منظر عام للبيمارستان الصلاحي



أحد جوانب البيمارستان الصلاحي

أما فيما يتعلق بالأوقاف ، فقد وقف صلاح الدين أوقافاً عديدة على البيمارستان وزاد من أتى بعده على هذه الأوقاف، وكانت تشمل (٣٩) بيتاً في أحياء مختلفة في القدس ، و (٥١) دكاناً ومخزناً ، ومعصرة وأرض كرم قرب باب العمود ومزرعة في حارة بني سعد ومجموعة من الأقبية (١) .

ويبدو أن البيمارستان بقي في مبناه الأصلي حوالي ٣٠٠ سنة، إلا أن هذا المبنى تهدم بفعل زلزال سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٨٥م (٢) ، ولكن الظاهر أن المؤسسة ظلت تعمل في مبنى آخر ، حيث كان البيمارستان مؤسسة طبية كبرى تقدم العلاج والأدوية مجاناً ، كما كان مركزاً لتدريب الأطباء.

وفي سنة ١٨٦٩م وهب السلطان عبد العزيز العثماني أرض المستشفى وخراباته الى الدولة الألمانية ، بمناسبة زيارة ولي عهدها لمدينة القدس ، فبنى عليها الألمان كنيسة تعرف اليوم بكنيسة المخلص الإنجيلية أو اللوثرية . وافتتحها الامبراطور الألماني غليوم الثاني لدى زيارته القدس سنة ١٨٩٨م، وقد اكتشف الألمان حجارة نقش عليها اسم صلاح الدين وخلفائه وهم يحفرون أساسات هذه الكنيسة (٣) .

ويظهر أن هذه المنطقة من القدس كانت منذ القدم مركزاً طبياً للمدينة ، فقد بنى فيها الصليبيون أيضاً منزلاً كبيراً لفرسانهم وكان يضم مستشفى «دار الاسبتار».

٤ ـ دار الكُتّاب :

إضافة الى المؤسسات الثلاثة الكبيرة التي أنشأها صلاح الدين فقد أنشأ «كتاباً» لتعليم القرآن مقابل المسجد الأقصى ووقف عليه داراً للإنفاق عليه.

---

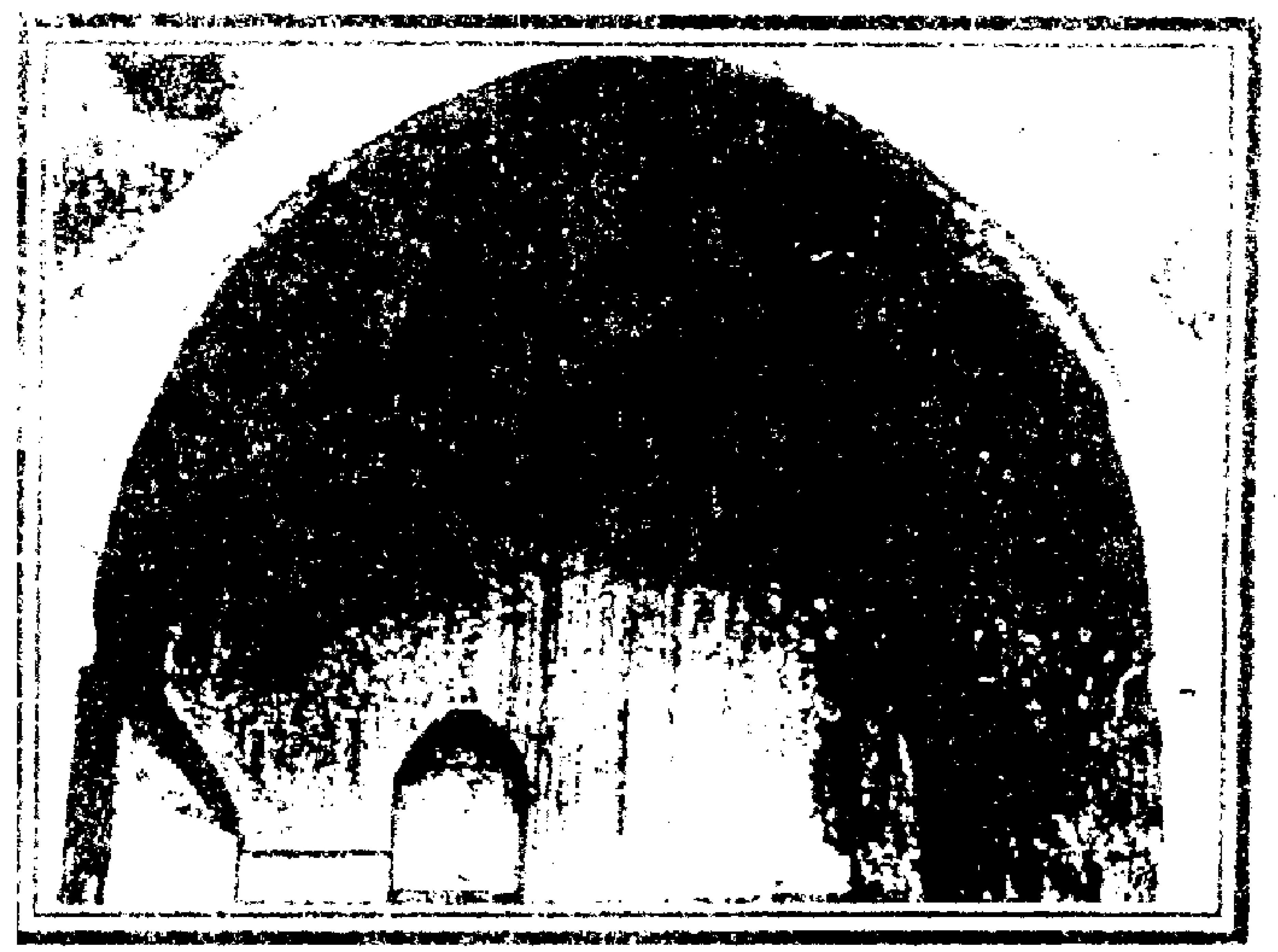
(١) عن مقال للدكتور العسلي ـ يوم القدس ـ ص ٨٠.
(٢) أحمد عيسى ـ تاريخ البيمارستانات ـ ص ٢٣١.
(٣) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم ـ ص ٢٩٧.

٥ ـ الزاوية الختنية :



منظر خارجي الزاوية الختنية

أسسها صلاح الدين الأيوبي خارج السور الجنوبي للمسجد الأقصى ولها باب بجوار المنبر ، وقد وقفها على رجل من أهل الصلاح هو الشيخ الزاهد العابد محمد بن أحمد الشاشي (١) ، ثم من بعده على من يحذو حذوه ، وكان تاريخ وقفها سنة ٥٨٧هـ / ١١٩٢م . وقد استمرت الزاوية «المدرسة» الختنية في تأدية عملها العلمي في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي (٢) ولا تزال أجزاء من هذه الزاوية ماثلة حتى اليوم.



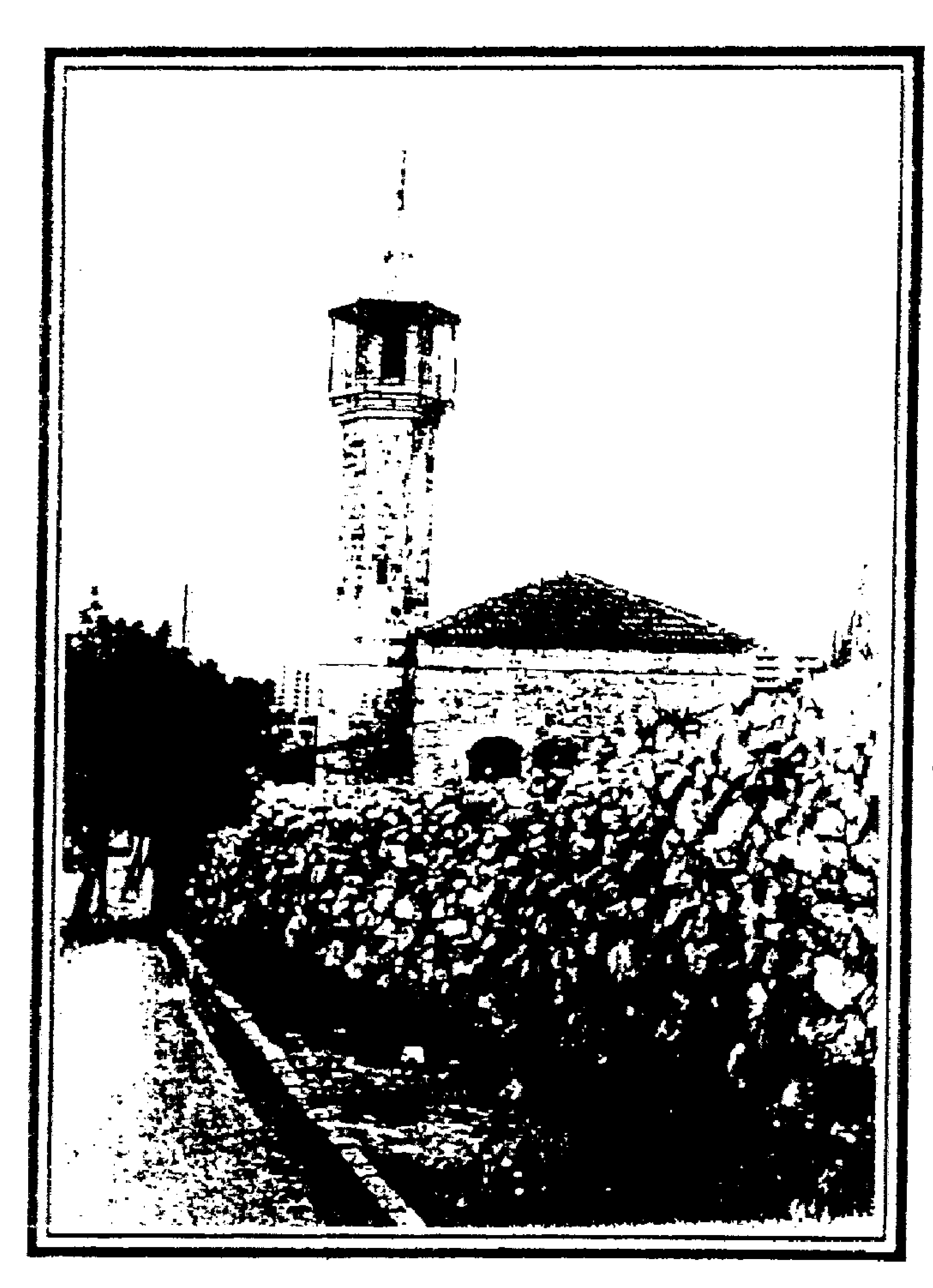
منظر داخلي للزاوية الختنية

---

(١) شاش هي طشقند اليوم.

(٢) د. كامل العسلي ـ معاهد العلم ـ ص ١٠٠-١٠٣ .

٦ ـ الزاوية الجراحية :


منظر خارجي الزاوية الختنية

وهي من المؤسسات التي أقيمت في مدينة بيت المقدس زمن صلاح الدين الأيوبي ، بظاهر القدس القديمة من جهة الشمال وتعرف بزاوية الشيخ جرّاح ، وتقع على جانب طريق نابلس ، ومنشئها الأمير «حسام الدين بن شرف الدين الجراحي» وهو أحد أمراء صلاح الدين ، وتوفي سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م (١).

---

(١) مجير الدين الحنبلي ـ الأنس الجليل ـ ج ٢، ص ٤٨.

مصادر البحث العربية

١ ـ ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني ـ (ت : ٦٣٠هـ)
ـ الكامل في التاريخ، الاجزاء ١١و١٢. (بيروت ١٩٦٦).
ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات. (القاهرة ١٩٦٣).

٢ ـ ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة. (ت : ٥٥٥هـ)
ـ ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨).

٣ ـ أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن نور الدين. (ت : ٧٣٢هـ)
ـ المختصر في أخبار البشر. (بيروت).

٤ ـ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد. (ت : ٦٨١هـ).
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس (بيروت ١٩٧٨).

٥ ـ سبط ابن الجوزي، شمس الدين بن المظفر يوسف. (ت : ٦٥٤هـ)
ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ق ١، ج ٨، (مطبعة حيدر آباد الدكن ١٩٥١).

٦ ـ أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن. (ت : ٦٦٥هـ)
ـ تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.

٧ ـ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت : ٦٩٧هـ)
ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٧).

٨ ـ ابن قاضي شهبة، بدر الدين (ت : ٧٧٤هـ)
ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق د. محمود زايد (بيروت ١٩٧١).

٩ ـ الحنبلي، أحمد بن ابراهيم الحنبلي، (ت : هـ) .
ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد (١٩٧٨م).

١٠ ـ ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع، (ت : ٦٣٢هـ) .
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٦٤).

١١ ـ ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، (ت : ٨٧٤هـ)

ـ النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. (القاهرة ١٩٣٥).
١٢ ـ الحموي، ياقوت ـ معجم البلدان.
١٣ ـ ابن اياس، محمد بن أحمد، (ت : ٩٣٠هـ)
ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، (القاهرة).
١٤ ـ ابن كثير، عماد الدين ابن أبي الفداء اسماعيل (ت : ٧٧٤هـ).
ـ البداية والنهاية (القاهرة ١٩٣٢م).
١٥ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت : ٨٤٥هـ).
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك . (القاهرة ١٩٤٣).
١٦ ـ المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي،
ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، (القاهرة ١٩٧٥).
١٧ ـ البنداري ، قوام الدين أبو الفتح علي بن محمد (ت : ٦٤٣هـ)
ـ سنا البرق الشامي، وهو مختصر لكتاب (البرق الشامي) للأصفهاني.
١٨ ـ القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت : ٨٢١هـ)
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا. (القاهرة : ١٩٦٣).
١٩ ـ الحنبلي ، مجير الدين (ت : ٩٢٨هـ)
ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج ١، ج ٢. (١٩٦٨).
٢٠ ـ الأصفهاني ، عماد الدين ابن عبد الله محمد بن صفي الدين (ت : ٥٩٧هـ)
ـ الفتح القسي في الفتح القدسي.
٢١ ـ البغدادي ، عبد اللطيف
ـ عيون الأنباء في طبقات الأعيان.
٢٢ ـ د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، (١٩٧١).
٢٣ ـ د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، التاريخ السياسي.
٢٤ ـ الموسوعة الفلسطينية ـــ الطبعة الأولى (١٩٨٤) ج ٣، ج ٤.
٢٥ ـ د. أمينة البيطار ـــ تاريخ العصر الأيوبي، دمشق (١٩٨١ـــ١٩٨٢).
٢٦ ـ د. عبد المجيد زايد ـــ القدس الخالدة.
٢٧ ـ عماد الدين خليل ـــ عماد الدين زنكي.
٢٨ ـ حسن ابراهيم حسن ـــ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب.

٢٩ ـ د. محمد سامي الدهان ــ الناصر صلاح الدين الأيوبي. (١٩٦١).
٣٠ ـ دريد عبد القادر نوري ــ سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة.
٣١ ـ عارف العارف ــ المفصل في تاريخ القدس.
٣٢ ـ رائف نجم ــ كنوز القدس.
٣٣ ـ د. كامل العسلي ــ معاهد العلم في بيت المقدس.
٣٤ ـ مصطفى مراد الدباغ ــ بلادنا فلسطين ــ ج ١٠.
٣٥ ـ أحمد عيسى ــ تاريخ البيمارستانات.
٣٦ ـ د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك.

المراجع المترجمة للعربية

١ـ جب (هاملتون) : مآثر صلاح الدين، دراسات في حضارة الإسلام . دار العلم للملايين (بيروت ١٩٧٤).
٢ ـ رنسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية. (بيروت ١٩٨٧).

References المراجع الأجنبية

1) Setton & Baldwin, A History Of The Crusades.
2) W. B. Stevenson, The Crusaders In The East. (Cambridge, 1907).
3) Runciman, A History Of The Crusades. (London, 1957).
4) Fulcher Of Chartre, A History Of The Expedition To Jerusalem, (New York, 1973) .
5) Lanepool (S), The History Of Egypt In The Middle Ages.(London, 1901).
6) Lanepool (S), Saladin And The Fall Of The Kingdom Of Jerusalem, (Beirut, 1964).

44
s



Dar ajdalawi Pub. & Dis.
mman 11118 - Jordan
P.O.Box : 184257
Fax : 4611606 - 4622884



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
عمان – الرمز البريدي : ١١١١٨ – الأردن
ص.ب : ١٨٤٢٥٧ – تلفاكس : ٤٦١١٦٠٦ – ٤٦٢٢٨٨٤